

الفصل السادس

القيامة عند الأنبياء وفي كتب أهل الكتاب

المبحث الأول

اتفاق جميع الأنبياء على الإخبار بالمعاد

الإيمان بالقيامة والجنة والنار من أصول الإيمان التي يشترك الأنبياء جميعا وأتباعهم الصادقون في معرفتها والإيمان بها ، والقرآن وهو كتاب الله المحفوظ الذي لم يغير ولم يبدل يدل دلالة قاطعة على أن الأنبياء جميعا عرفوا أممهم بالقيامة ، وبشروهم بالجنة ، وأنذروهم النار ، ويدل على ذلك أمور :

١ - أخبر القرآن عن جميع الأشقياء الكفار أهل النار أنهم يقرون بأن رسلهم أنذرتهم باليوم الآخر . ﴿ كَلِمَاتٍ الَّتِي فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ ٨ قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء وإن أنتم إلا في ضلال كبير ﴿ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير ﴿ (١) . وقال : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَىٰ الْكَافِرِينَ ﴿ (٢) .

فالكفار جميعا عندما يسألون عند ورودهم النار يقرون بأن رسلهم خوفتهم لقاء ذلك اليوم ، ولكنهم كفروا وكذبوا .

(١) سورة الملك : ٨ - ١٠ .

(٢) سورة الزمر : ٧١ .

وهذا الذي قررته الآيات السابقة بينه الله في غير موضع من كتابه ، فقد أخبر الحق تبارك وتعالى أن مقتضى عدله وحكمته أن لا يعذب أحدا لم تبلغه الرسالة ولم تقم عليه الحجة ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ (١) .
﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ (٢) . من أجل ذلك عمت الرسالة كل البشر ، ﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ (٣) .

٢ - عندما أهبط الله آدم إلى الأرض عرفه بالبعث والمعاد ، ﴿ قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ (٤) .

وعندما غضب الله على إبليس وطرده من رحمته طلب الإمهال إلى يوم البعث فأجاب الحق طلبه ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ﴾ (٥) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (٥) إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾ (٥) .

٣ - وأول الرسل نوح عليه السلام حذر قومه يوم القيامة ، وضرب لهم الأمثال الدالة على وقوعه وحدوثه ، فقد قال لقومه : ﴿ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾ (٦) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾ (٦) .

٤ - وأبو الأنبياء خليل الرحمن ذكر اليوم الآخر كثيرا ، ففي دعائه ربه لمكة وأهلها قال : ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الشَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ

(١) سورة الإسراء : ١٥ .

(٢) سورة النساء : ١٦٥ .

(٣) سورة فاطر : ٢٤ .

(٤) سورة الأعراف : ٢٤ - ٢٥ .

(٥) سورة ص : ٧٩ - ٨١ .

(٦) سورة نوح : ١٧ - ١٨ .

بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمْتِعْهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ
وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١﴾ .

وفي دعائه لنفسه وأبيه والمؤمنين قال : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ
يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ (٢) .

وفي حاجته قومه فيها يعبدون بين أحقية ربه بالعبادة ، لأنه يطعم ويسقي ،
وعيت ويحي ، ويشفي المرضى ، ويغفر الذنوب في يوم الدين ﴿ وَالَّذِي
هُوَ يُطْعَمُنِي وَيَسْقِينِي ﴾ (٣) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي ﴿٤﴾ وَالَّذِي يُمَيِّتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِي
﴿٥﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٦﴾ (٣) ، ثم دعا ربه سائلا إياه
دخول الجنة ، وأن لا ينجزيه في يوم الدين ﴿ وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴾ (٧)
وَأَغْفِرْ لِي لِأَنَّهُ كَانَ مِنَ الصَّالِينَ ﴿٨﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٩﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ
مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿١١﴾ (٤) .

٥ - وجاء في مناجاة الله لموسى : ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ
لِدِكْرِي ﴾ (١٢) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴿١٣﴾
فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴿١٤﴾ (٥) .
وجاء في محاوراة موسى لفرعون ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكَ وَفِيهَا نُعِيدُكَ وَمِنْهَا نُخْرِجُكَ
نَارًا أُخْرَىٰ ﴾ (٦) .

٦ - وهود أنذر قومه وخوفهم لقاء ربهم فكذبوا ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا

(١) سورة البقرة : ١٢٦ .

(٢) سورة إبراهيم : ٥١ .

(٣) سورة الشعراء : ٧٩ - ٨٢ .

(٤) سورة الشعراء : ٨٥ - ٨٩ .

(٥) سورة طه : ١٤ - ١٦ .

(٦) سورة طه : ٥٥ .

وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتَرَفْنَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ بِأَكْلِ
 مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشْرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا
 نَحَسِرْتُمْ لَنْ تُنْفِرُوا مِنْهُمْ لَخِيسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيْعِدْكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَنَّكُمْ تُخْرَجُونَ
 ﴿٣٥﴾ هِيَ هِيَ هِيَ لِمَا تُوْعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا
 نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿١﴾

٧ - وشعيب قال لقومه : ﴿ يَنْقُومِ الْعَبْدُوا اللَّهَ وَأَرْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتُوا فِي
 الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (١)

٨ - وجاء في دعاء يوسف ربه : ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَيْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ
 الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا
 وَالْحَقِّي بِالصَّالِحِينَ ﴾ (٢)

٩ - وبعض أتباع الرسل الذين حكى الله مقالهم في كتابه يعرفون البعث
 والنشور ، ويشيرون بالجنة ، ويحذرون من النار ، فذو القرنين عندما بلغ
 مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة ، ووجد عندها قوما ، فقال الله
 له : ﴿ يٰذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذَّبَ وَإِمَّا أَنْ نُنَجِّدَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾ (٣) قَالَ أَمَّا مَنْ
 ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكَرًا ﴿٤٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ
 صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٤٨﴾

ومؤمن آل فرعون كان موقنا بالبعث عارفاً به ، ولا تختلف معرفته به عن
 معرفتنا ، وقد حذر قومه من ذلك اليوم تحذيراً فيه تفصيل وبيان ، وما قاله

(١) سورة المؤمنون : ٣٣ - ٣٧ .

(٢) سورة العنكبوت : ٣٦ .

(٣) سورة يوسف : ١٠١ .

(٤) سورة الكهف : ٨٦ - ٨٨ .

لهم : ﴿ وَيَقَوْمٍ إِلَىٰ أَخَافٍ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُؤَلَّفُونَ مَدِيرِينَ مَا لَكُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣١﴾ .

وقال أيضا : ﴿ يَقَوْمٍ إِنَّمَا هَٰذِهِ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٣﴾ مِنْ عَمَلٍ سَيِّئَةٍ فَلَا يَجْزِي إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثِيَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٤﴾ وَيَقَوْمٍ مَا لِي أَدْعُوكَ إِلَى النَّجْوَىٰ وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ ﴿٣٢﴾ .

وقال : ﴿ لَاجِرُمْ إِنَّمَا تَدْعُونِي إِلَىٰ إِلَٰهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَّرَدْنَا إِلَىٰ اللَّهِ وَإِنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٣٣﴾ .

وسحرة فرعون عندما رأوا الآية الباهرة التي جاء بها موسى خروا ساجدين ، وسبحوا مؤمنين ، فتهددهم فرعون بالعذاب الأليم ، فاعتصموا بالله ربهم ، ولم يلتفتوا إلى تهديد أو وعيد ، وأجابوا قائلين : ﴿ إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَنَا وَمَا آكُرْهَنَّا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُ مِنْ بَيَاتِ رَبِّهِ مُجْرِمًا فَإِنْ لَهُ جَهَنَّمُ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٥﴾ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّاتٍ عِدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَرَكَنِي ﴿٤٤﴾ .

(١) سورة المؤمن : ٣٢ - ٣٣ .

(٢) سورة المؤمن : ٣٩ - ٤١ .

(٣) سورة المؤمن : ٤٣ .

(٤) سورة طه : ٧٣ - ٧٦ .

المَبْحَثُ الثَّانِي نظرة في نصوص اليوم الآخر في كتب أهل الكتاب

لا شك أن الكتب السماوية التي أنزلها الحق تبارك وتعالى كانت تزخر نصوصها بذكر اليوم الآخر ، والتخويف منه ، والتبشير بما أعدّه الله للمؤمنين به في جنات النعيم ، والتحذير من النار وأهوال القيامة ، إلا أن هذه الكتب طرأ عليها تحريف كثير ، وذهب كثير من نصوصها التي تتعرض لليوم الآخر .

١ - ففي التوراة التي تنسب إلى موسى لا نجد إلا نصا واحدا يصرح بيوم القيامة ، وهو في التوراة السامرية صريح للغاية ، ولكنه في التوراة العبرية يحتمل معنيين ، ففي سفر تثنية الاشرع ، الإصحاح الثاني والثلاثون ؛ (٣٤ - ٣٥) من التوراة السامرية : « أليس هو مجموعا عندي مختوما في خزائني ، إلى يوم الانتقام والمكافأة ، وقت نزل أقدامهم » .

وجاء النص في التوراة العبرانية هكذا : « أليس ذلك مكنوزا عندي مختوما عليه في خزائني ، لي النقمة والجزاء في وقت نزل أقدامهم » .

فنص السامرية يدل على أن الفصل إنما يكون في يوم القيامة الذي سماه يوم الانتقام والمكافأة . أما نص العبرانية فإنه يبيح أن يكون الانتقام في الدنيا ، ويبيح أن يكون في الآخرة ، ولذلك فإن الصادوقيين من اليهود الذين لا يؤمنون إلا بتوراة موسى العبرية لا يؤمنون بالبعث والنشور ، لعدم وجود دلالة تدل على البعث والنشور .

أما أسفار الأنبياء الأخرى في التوراة ففيها بعض النصوص التي تصرح بالبعث والنشور ، وكذلك الأناجيل .

٢ - ففي سفر دانيال : « كثيرون من الراقدين تحت التراب يستيقظون ، هؤلاء إلى الحياة الأبدية ، وهؤلاء إلى العار ، والازدراء الأبدي »^(١) .

٣ - وفي سفر المزامير يذكر الحشر إلى النار فيقول : « مثل الغنم إلى النار يساقون ، الموت يرعاهم ، ويسودهم المستقيمون غداة ، وصورتهم تبل ، والهاوية مسكن لهم »^(٢) .

٤ - وفي إنجيل لوقا إشارة إلى عذاب القبر ، فقد جاء فيه : « ومات الغني ودفن ، فرفع عينيه في الهاوية وهو في العذاب »^(٣) . فالمقبور من أهل الفجور يكون في العذاب ويرى مقعده من النار ، والهاوية هي النار .

٥ - وفي إنجيل متى « فإن أعثرتك يدك أو رجلك فاقطعها وألقها عنك خير لك أن تدخل الحياة أعرج أو أقطع من أن تلقى في النار الأبدية ولك يدان أو رجلان »^(٤) .

ومن أكثر الكتب التي تحدثت عن الجنة والنار إنجيل برنابا ، فقد تحدث عن أهل الجنة ، وأنهم يأكلون ويشربون ، ولكنهم لا يتبولون ولا يتغوطون ، لأن

(١) الاصحاح ١٢ من سفر دانيال .

(٢) الفقرة ٥ من المزمور الخامس والخمسين .

(٣) الفقرة ٢٢ من الاصحاح السادس من انجيل لوقا .

(٤) الفقرة ٨ من الاصحاح الثامن عشر من إنجيل متى .

طعامهم وشرابهم ليس فيه خبث ولا فساد ، ولكن النصارى يكذبون بهذا الإنجيل الذي ظهر أخيرا في عصرنا هذا .

وبعض اليهود يؤمنون بالبعث والنشور وهؤلاء يسمون بحزب الكتبة ، والحزب الآخر وهم « الصادوقيون » لا يؤمنون بالبعث والخلود في الجنة أو النار . وقد ذكر إنجيل « متى » أن الطائفة المكذبة بالقيامة جاؤوا إلى عيسى وجادلوه في القيامة : « في ذلك اليوم جاء إليه صادوقيون ، الذين يقولون لا قيامة »^(١) وأجاب عيسى عن سؤال أحد تلامذته القائل : « أيذهب جسدنا الذي لنا إلى الجنة ؟ » فقال له عيسى عليه السلام : « احذر يا بطرس من أن تصير صدوقيا ، فإن الصدوقيين يقولون : أن الجسد لا يقوم أيضا ، وأنه لا توجد ملائكة ، لذلك حرم على جسدهم وروحهم الدخول في الجنة » .
والنصارى يعتقدون أن الذي ينعم أو يعذب في القيامة هو الروح فحسب ، وقال بقولهم بعض الذين ينتسبون إلى الإسلام من الفلاسفة والفرق الباطنية الضالة .

(١) فقرة ٢٣ من الاصحاح ٢٢ من إنجيل متى .

الفصل السابع أحوال يوم القيامة

المبحث الأول الدلائل على عظم أحوال ذلك اليوم

يوم القيامة يوم عظيم أمره ، شديد هوله ، لا يلاقي العباد مثله ، ويدل على عظم هوله أمور :

الأول : وصف الله لذلك اليوم بالعظم ، وحسبنا أن ربنا وصفه بذلك ، ليكون أعظم مما نتصور، وأكبر مما نتخيل ﴿الْأَيُّظُنُّ أَوْلَيْكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿١﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣﴾﴾ (١) ، ووصفه في موضع آخر بالثقل ، وفي موضع ثالث بالعسر ، ﴿إِنَّ هَذَا لَأَنْ يُجِبُونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذُرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢﴾﴾ ، ﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿١﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿٢﴾﴾ .

الثاني : الرعب والفرع الذي يصيب العباد في ذلك اليوم ، فالمرضع التي تفدي وليدها بنفسها تذهل عنه في ذلك اليوم والحامل تسقط حملها ، والناس يكون حالهم كحال السكارى الذين فقدوا عقولهم ﴿يَتَأَيَّبُ النَّاسُ أَنْقُورًا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ

(١) سورة المطففين : ٤ - ٦ .

(٢) سورة الدهر : ٢٧ .

(٣) سورة الإنسان : ٢٧ .

شديد ﴿١﴾ . ولشدة الهول تشخص أبصار الظلمة في ذلك اليوم ، فلا تطرف
 لشدة الرعب ، ولا يلتفتون يمينا ولا شمالا ، ولشدة الخوف تصبح أفئدتهم خالية لا
 تعي شيئا ولا تعقل شيئا ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ
 لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ
 وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٢﴾ .

وترتفع قلوب الظالمين لشدة الهول إلى حناجرهم ، فلا تخرج ، ولا تستقر في
 مكانها ﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْأَرْزَاقِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظْمِينَ ﴿٣﴾ . ومعنى
 كاظمين : أي ساكتين لا يتكلمون .

ووصف في موضع آخر ما يصيب القلوب والأبصار في ذلك اليوم فقال :
 ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٤﴾ ، وقال : ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾
 أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ ﴿٥﴾ .

وحسبك أن تعلم أن الوليد الذي لم يرتكب جرما يشيب شعر رأسه لشدة ما
 يرى من أهوال : ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾ السَّمَاءُ
 مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴿٦﴾ .

الثالث : انقطاع علائق الأنساب في يوم القيامة ، كما قال تعالى : ﴿ فَإِذَا
 نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٧﴾ ، فكل إنسان في ذلك

(١) سورة الحج : ١ - ٢ .

(٢) سورة إبراهيم : ٤٢ - ٤٣ .

(٣) سورة غافر : ١٨ .

(٤) سورة النور : ٣٧ .

(٥) سورة النازعات : ٨ .

(٦) سورة الزمل : ١٧ - ١٨ .

(٧) سورة المؤمنون : ١٠١ .

اليوم يهتم بنفسه ، ولا يلتفت إلى غيره ، بل إن الإنسان يفر من أحب الناس إليه ، يفر من أخيه وأمه وأبيه وصاحبه وبنيه ، كما قال تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاعَةَ ﴾ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ .

وقال في موضع آخر : ﴿ يَتَأَيَّبُ النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ (٣٧) . وقال : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يَنْصُرُونَ ﴾ (٣٨) .

الرابع : استعداد الكفار في يوم الدين لبذل كل شيء في سبيل الخلاص من العذاب ، فلو كانوا يملكون مافي الأرض لافتدوا به ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ ﴾ (٤١) ، بل لو كان للكافر ضعف مافي الأرض لافتدى به ﴿ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ ﴾ (٤٥) ، بل هو على استعداد أن يبذل ما عنده ولو كان ملء الأرض ذهباً ، وعلى احتمال أن كان الأمر كذلك ، فإن الله لا يقبل منه ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ (٤٦) .

وفي صحيح البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن نبي الله ﷺ كان

(١) سورة عبس : ٣٣ .

(٢) سورة لقمان : ٣٣ .

(٣) سورة البقرة : ٤٨ .

(٤) سورة يونس : ٥٤ .

(٥) سورة الرعد : ١٧ .

(٦) سورة آل عمران : ٩١ .

يقول : « يجاء بالكافر يوم القيامة فيقال له : أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهباً كنت تفتدي به ؟ فيقول : نعم . فيقال له : قد كنت سألتك ما هو أيسر من ذلك » (١) .

ويصل الحال بالكافر في ذلك اليوم أن يتمنى لو دفع بأعز الناس عنده في النار لينجو هو من العذاب ﴿ يَوْمَ الْمُجْرِمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴾ (١١) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴾ (١٢) وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ﴿ كَلَّا إِنَّهَا لَأَنْهَا لَأُظَنِّ ﴾ (٢) .

الخامس : ويدلك على هول ذلك اليوم وشدته : طوله ، قال تعالى : ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ مِائَتِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ (٤) فَأَصْبَرَ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴾ (٥) وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴿ (٣) .

وسياق الآيات يدل دلالة واضحة على أن المراد به يوم القيامة ، وقد ثبت بإسناد صحيح عن ابن عباس أنه يوم القيامة ، وبذلك قال الحسن ، والضحاك ، وابن زيد (٤) . ولطول ذلك اليوم يظن الناس في يوم المعاد أنهم لم يلبثوا في الحياة الدنيا إلا ساعة من نهار ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ ﴾ (٥) ، قال ابن كثير في تفسيره لهذه الآية : « يقول تعالى مذكراً للناس قيام الساعة وحشرهم من أجدانهم إلى عرصات القيامة : ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ ﴾ .

-
- (١) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، باب من نوقش الحساب عذب ، فتح الباري : (١١/٤٠٠) .
 (٢) سورة المعارج : ١١ - ١٥ .
 (٣) سورة المعارج : ٤ - ٧ .
 (٤) النهاية لابن كثير : (١/٣٢٣) .
 (٥) سورة يونس : ٤٥ .

المَبْحَثُ الثَّانِي بعض معالم أهوال القيامة

يحدثنا القرآن عن أهوال ذلك اليوم التي تشده الناس ، وتشدُّ أبصارهم ، وتملك عليهم نفوسهم ، وتزلزل قلوبهم .

ومن أعظم تلك الأهوال ذلك الدمار الكوني الشامل الرهيب الذي يصيب الأرض وجبالها ، والسماء ونجومها وشمسها وقمرها .

يحدثنا ربنا أن الأرض تزلزل وتدك ، وأن الجبال تُسِير وتنسف ، والبحار تُفَجَّر وتُسَجَّر ، والسماء تشقق وتمور ، والشمس تُكْوَر وتذهب ، والقمر يخسف ، والنجوم تنكدر ويذهب ضوءها ، وينفطر عقدها .

وسأذكر بعض النصوص التي تصور وقائع تلك الأهوال ثم أذكر ما يحدث لكل واحد من العوالم العظيمة في ذلك اليوم .

المطلب الأول قبض الأرض وطي السماء

يقبض الحق تبارك وتعالى الأرض بيده في يوم القيامة ، ويطوي السموات بيمينه ، كما قال تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ

يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ .

وقد أخبرنا في موضع آخر عن كيفية طيه للسماوات فقال : ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْهَا بِإِنَّا كَاتِبِينَ ﴾ ﴿٢﴾ .

قال ابن كثير : « والصحيح عن ابن عباس أن السجل هي الصحيفة ، قاله علي بن أبي طلحة ، والعوفي عنه ، ونص على ذلك مجاهد وقتادة وغير واحد ، واختاره ، ابن جرير ، لأنه المعروف في اللغة ، فعلى هذا فيكون معنى الكلام يوم تطوى السماء كطي السجل للكتاب ، أي على الكتاب ، بمعنى المكتوب » ﴿٣﴾ .

وقد جاءت الأحاديث الصحيحة دالة على مثل ما دلت عليه النصوص القرآنية ، ومبينة فائدة أخرى ، وهي ما يقوله الحق تبارك وتعالى بعد قبضه الأرض وطيها السماء ، ففي الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « يقبض الله الأرض يوم القيامة ، ويطوي السماء بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك ، أين ملوك الأرض » ﴿٤﴾ .

وفي صحيح مسلم عن عبدالله بن عمر ، قال : قال رسول الله ﷺ : « يطوي الله السماوات يوم القيامة ، ثم يأخذهن بيده اليمنى ، ثم يقول : أنا الملك ، أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ ثم يطوي الأرض بشماله - وفي رواية : يأخذهن بيده الأخرى - ثم يقول : أنا الملك ، أين الجبارون ، أين المتكبرون ؟ » ﴿٥﴾ .

(١) سورة الزمر : ٦٧ .

(٢) سورة الأنبياء : ١٠٤ .

(٣) تفسير ابن كثير : ٦٠٢/٤ .

(٤) مشكاة المصابيح : (٥٣/٣) ، ورقمه : ٥٥٢٢ .

(٥) مشكاة المصابيح (٥٣/٣) ورقمه : ٥٥٢٣ .

وروى البخاري عن عبد الله بن مسعود أن يهوديا جاء إلى النبي ﷺ فقال : يا محمد إن الله يمسك السموات على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والجبال على إصبع ، والشجر على إصبع ، والخلائق على إصبع ثم يقول : أنا الملك ، فضحك رسول الله ﷺ ، حتى بدت نواجذه ، ثم قرأ : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ . « (١) (٢) » .

وهذا القبض للأرض والطي للسموات يقع بعد أن يفني الله خلقه ، وقيل إن المنادي ينادي بعد حشر الخلق على أرض بيضاء مثل الفضة ، لم يعص الله عليها ، واختاره أبو جعفر النحاس ، قال : والقول صحيح عن ابن مسعود ، وليس هو مما يؤخذ بالقياس ، ولا بتأويل .

وقال القرطبي : « والقول الأول أظهر ، لأن المقصود إظهار انفراده بالملك ، عند انقطاع دعوى المدعين ، وانتساب المنتسبين ، إذ قد ذهب كل ملك وملكه ، وكل جبار ومتكبر وملكه ، وانقطعت نسبهم ودعواهم ، وهذا أظهر » (٣) .

المطلب الثاني

دك الأرض ونسف الجبال

يخبرنا ربنا تبارك وتعالى أن أرضنا الثابتة ، وما عليها من جبال صم راسية تحمل في يوم القيامة عندما ينفخ في الصور فتدك دكة واحدة ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ ﴾

(١) سورة الزمر : ٦٧ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : ﴿ لما خلقت بيدي ﴾ ، فتح الباري :

(٣٩٣/١٣) .

(٣) تذكرة القرطبي : ١٧٢ .

نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحَمَلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ أَفْئِدَتًا دَاكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ
 الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ ﴿١﴾ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢﴾ ، وعند ذلك تتحول هذه
 الجبال الصلبة القاسية إلى رمل ناعم ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ
 وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيًّا مِهْلًا ﴾ ﴿٣﴾ ، أي تصبح ككثبان الرمل بعد أن كانت
 حجارة صماء ، والرمل المهيل : هو الذي إذا أخذت منه شيئاً تبعك ما بعده ،
 يقال : أهلت الرمل أهيله هيلاً ، إذا حركت أسفله حتى انهار من أعلاه .

وأخبر في موضع آخر أن الجبال تصبح كالعهن ، والعهن هو الصوف ، كما
 قال تعالى : ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴾ ﴿٤﴾ ، وفي نص آخر مثلها بالصوف
 المنفوش ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴾ ﴿٥﴾ .

ثم إن الحق تبارك وتعالى يزيل هذه الجبال عن مواضعها ، ويسوي الأرض
 حتى لا يكون فيها موضع مرتفع ، ولا منخفض ، وعبر القرآن عن إزالة الجبال
 بتسييرها مرة ، ونسفها أخرى ، ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾ ﴿٦﴾ ، ﴿ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ
 فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ ﴿٧﴾ . وقال في نسفه لها : ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴾ ﴿٨﴾ . ثم بين
 الحق حال الأرض بعد تسيير الجبال ونسفها ﴿ وَيَوْمَ نُسِّرُ الْجِبَالُ وَتَرَى الْأَرْضَ
 بَارِزَةً ﴾ ﴿٩﴾ أي ظاهرة لا ارتفاع فيها ولا انخفاض ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ
 عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠﴾ فَيَذَرُهَا قِطَافًا صَفْصَفًا ﴿١١﴾ لَا تَرَى فِيهَا
 عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴾ ﴿١٠﴾ .

- | | |
|-----------------------------|----------------------------|
| (١) سورة الحاقة : ١٣ - ١٦ . | (١٠) سورة طه : ١٠٥ - ١٠٧ . |
| (٢) سورة الفجر : ٢١ . | (١١) سورة الزمزم : ١٤ . |
| (٣) سورة الزمزم : ١٤ . | (١٢) سورة المعارج : ٨ . |
| (٤) سورة المعارج : ٨ . | (١٣) سورة القارعة : ٥ . |
| (٥) سورة القارعة : ٥ . | (١٤) سورة التكويد : ٣ . |
| (٦) سورة التكويد : ٣ . | (١٥) سورة النبأ : ٢٠ . |
| (٧) سورة النبأ : ٢٠ . | (١٦) سورة المرسلات : ١٠ . |
| (٨) سورة المرسلات : ١٠ . | (١٧) سورة الكهف : ٤٨ . |
| (٩) سورة الكهف : ٤٨ . | (١٨) سورة طه : ١٠٥ - ١٠٧ . |
| (١٠) سورة القارعة : ٥ . | |

المطلب الثالث تفجير البحار وتسجيرها

أما هذه البحار التي تغطي الجزء الأعظم من أرضنا ، وتعيش في باطنها عوالم هائلة من الأحياء ، وتتهادى فوقها السفن ذاهبة آية ، فإنها تفجّر في ذلك اليوم ، وقد علمنا في هذا العصر الهول العظيم الذي يحدثه انفجار الذرات الصغيرة التي هي أصغر من ذرات الماء فكيف إذا فجرت ذرات المياه في هذه البحار العظيمة ، عند ذلك تسجر البحار ، وتشتعل نارا ، ولك أن تتصور هذه البحار العظيمة الهائلة وقد أصبحت مادة قابلة للاشتعال ، كيف يكون منظرها ، واللهب يرتفع منها إلى أجواز الفضاء ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ ﴾^(١) ، وقال : ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ مِجْرَتْ ﴾^(٢) .

وقد ذهب المفسرون قديما إلى أن المراد بتفجير البحار ، تشقق جوانبها وزوال ما بينها من الحواجز ، واختلاط الماء العذب بالماء المالح ، حتى تصير بحرا واحدا^(٣) ، وما ذكرناه أوضح وأقرب ، فإن التفجير بالمعنى الذي ذكرناه مناسب للتسجير ، والله أعلم بالصواب .

المطلب الرابع موران السماء وانفطارها

أما سماؤنا الجميلة الزرقاء التي ننظر إليها فتنتشرح صدورنا ، وتسرق قلوبنا ، فإنها تمور مورانا ، وتضطرب اضطرابا عظيما ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴾^(٤) .

(٣) تفسير الألوسي : (٦٣/٣٠) .

(٤) سورة الطور : ٩ .

(١) سورة الانفطار : ٣ .

(٢) سورة التكويد : ٧ .

ثم إنها تنفطر ، وتتشقق ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ (١) ، ﴿إِذَا السَّمَاءُ
انْشَقَّتْ﴾ (٢) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحَقَّتْ﴾ (٣) .

وعند ذلك تصبح ضعيفة واهية ، كالقصر العظيم ، المتين البنيان ، الراسخ
الأركان ، عندما تصيبه الزلازل ، تراه بعد القوة أصبح واهيا ضعيفا متشققا ،
﴿وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ (٣) .

أما لون السماء الأزرق الجميل فإنه يزول ويذهب ، وتأخذ السماء في التلون
في ذلك اليوم كما تتلون الأصباغ التي يدهن بها ، فتارة حمراء ، وتارة صفراء ،
وأخرى خضراء ، ورابعة زرقاء ، كما قال تعالى : ﴿فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ
وَرْدَةً كَالدَّهَانِ﴾ (٤) ، وقد نقل عن ابن عباس أن السماء تكون في ذلك اليوم
كالفرس الورد ، والفرس الورد - كما يقول البغوي - تكون في الربيع صفراء ،
وفي الشتاء حمراء ، فإذا اشتد البرد تغير لونها ، وقال الحسن البصري في قوله :
(وردة كالدهان) أي تكون ألوانا (٥) .

المطلب الخامس

تكوير الشمس وخسوف القمر وتناثر النجوم

أما هذه الشمس التي نراها تشرق كل صباح ، فتغمر أرضنا بالضياء ، وتمدنا
بالنور والطاقة التي لا غنى عنها لأبصارنا وأبداننا ، وما يدب على الأرض من

(١) سورة الانفطار : ١ .

(٢) سورة الانشقاق : ١ - ٢ .

(٣) سورة الحاقة : ١٦ .

(٤) سورة الرحمن : ٣٧ .

(٥) تفسير ابن كثير (٦/٤٩٤)

أحياء ، وما ينمو فيها من نبات ، فإنها تجمع وتكُوِّر ، ويذهب ضوءها ، كما قال تعالى : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ (١) ، والتكوير عند العرب : جمع الشيء بعضه على بعض ، ومنه تكوير العمامة ، وجمع الثياب بعضها على بعض ، وإذا جمع بعض الشمس على بعض ، ذهب ضوءها ورمى بها .

أما القمر الذي نراه في أول كل شهر هلالا ، ثم يتكامل ويتنامى ، حتى يصبح بدرا جميلا بديعا ، يتغنى بجماله الشعراء ، ويؤنس المسافرين حين يسيرون في الليل ، فإنه يخسف ويذهب ضوءه ، ﴿ فَإِذَا بَرَقَ الْبَصْرُ ﴾ (٢) وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴿ (٣) .

أما تلك النجوم المتناثرة في القبة السماوية الزرقاء ، فإن عقدها ينفرط ، فتتناثر وتتكدر ﴿ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ ﴾ (٤) ، ﴿ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴾ (٥) ، والانكدار : الانتثار ، وأصله في لغة العرب : الانصباب (٥) .

المطلب السادس

تفسير القرطبي للنصوص الواصفة لأهوال يوم القيامة

قال القرطبي : « روى الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من سره أن ينظر إلى يوم القيامة فليقرأ : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ (٦) ، ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴾ (٧) ، و ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ (٨) .

(١) سورة التكوير : ١ .

(٢) سورة القيامة : ٧ - ٨ .

(٣) سورة الانفطار : ٢ .

(٤) سورة التكوير : ٢ .

(٥) تفسير ابن كثير : (٢٢١/٧) .

(٦) سورة التكوير : ١ .

(٧) سورة الانفطار : ١ .

(٨) سورة الانشقاق : ١ .

قال : هذا حديث حسن (١) .

وإنما كانت هذ السور الثلاث أخص بالقيامة ، لما فيها من انشقاق السماء وانفطارها ، وتكور شمسها وانكدار نجومها ، وتناثر كواكبها ، إلى غير ذلك من أفزاعها وأهوالها ، وخروج الخلق من قبورهم إلى سجونهم أو قصورهم ، بعد نشر صحفهم ، وقراءة كتبهم ، وأخذها بأيامهم وشمائلهم ، أو من وراء ظهورهم في موقفهم على ما يأتي بيانه .

قال الله تعالى : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ (٢) . وقال : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴾ (٣) . وقال : ﴿ وَيَوْمَ نَشَقُّ السَّمَاءَ بِالْغَمَمِ ﴾ (٤) ، فتراها واهية منفطرة متشققة ، كقوله تعالى : ﴿ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴾ (٥) ، ويكون الغمام سترة بين السماء والأرض ، وقيل إن الباء بمعنى عن ، أي تشقق عن سحاب أبيض . ويقال : انشقاقها لما يخلص إليها من حر جهنم ، وذلك إذا بطلت المياه ، وبرزت النيران ، فأول ذلك أنها تصير حمراء صافية كالدهن ، وتشقق لما يريد الله من نقض هذا العالم ، ورفعها . وقد قيل : إن السماء تتلون ، فتصفر ، ثم تحمر ، أو تحمر ، ثم تصفر ، كالمهرة تميل في الربيع إلى الصفرة ، فإذا اشتد الحر مالت إلى الحمرة ، ثم إلى الغبرة . قاله الحلبي .

وقوله تعالى : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ (٦) قال ابن عباس رضي الله عنه

(١) حديث صحيح رواه الترمذي والحاكم وأحمد ، انظر صحيح الجامع : (٣٠١/٣) ورقم الحديث :

. ٦١٩١

(٢) سورة الانشقاق : ١ .

(٣) سورة الانفطار : ١ .

(٤) سورة الفرقان : ٢٥ .

(٥) سورة النبأ : ١٩ .

(٦) سور التكوير : ١ .

تكويرها إدخالها في العرش . وقيل : ذهاب صفوها ، قاله الحسن وقتادة ، وروي ذلك عن ابن عباس ومجاهد . وقال أبو عبيدة : كورت مثل تكوير العمامة ، تلف فتمحى . وقال الربيع بن خيثم : كورت رمي بها ، ومنه : كورته ، فتكور . أي سقط . قلت : وأصل التكوير الجمع ، مأخوذ من كار العمامة على رأسه يكورها ، أي لاثها ، وجمعها ، فهي تكور ، ثم يحوضؤها ثم يرمى بها والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴾^(١) أي انتشرت ، قيل : تتناثر من أيدي الملائكة ، لأنهم يموتون ، وفي الخبر أنها معلقة بين السماء والأرض بسلاسل بأيدي الملائكة . وقال ابن عباس رضي الله عنه : انكدرت تغيرت ، وأصل الانكدار الانصباب ، فتسقط في البحار ، فتصير معها نيرانا ، إذا ذهب المياح .

وقوله : ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ سَوِيَتْ ﴾^(٢) هو مثل قوله ﴿ يَوْمَ نُسِفِ الْجِبَالَ ﴾^(٣) أي تحول عن منزلة الحجارة ، فتكون كثيبا مهيلا ، أي رملا سائلا ، وتكون كالعهن ، وتكون هباء منبثا ، وتكون سرايا ، مثل السراب الذي ليس بشيء . وقيل : إن الجبال بعد اندكاكها أنها تصير كالعهن من حر جهنم ، كما تصير السماء من حرها كالمهل قال الحلبي : وهذا والله أعلم لأن مياه الأرض كانت حاضرة بين السماء والأرض ، فإذا ارتفعت ، وزيد مع ذلك في إحماء جهنم أثر في كل واحد من السماء والأرض ما ذكر .

وقوله : ﴿ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴾^(٤) أي عطلها أهلها ، فلم تحلب من

-
- (١) سورة التكوير : ٢ .
 - (٢) سورة التكوير : ٣ .
 - (٣) سورة الكهف : ٤٧ .
 - (٤) سورة التكوير : ٤ .

الشغل بأنفسهم . والعشار : الإبل الحوامل ، وأحدها عشر ، وهي التي أتى عليها في الحمل عشرة أشهر ، ثم لا يزال ذلك اسمها حتى تضع ، وبعدها تضع ، وإنما خص العشار بالذكر ، لأنها أعز ما يكون على العرب ، فأخبر أنها تعطل يوم القيامة . ومعناه أنهم إذا قاموا من قبورهم ، وشاهد بعضهم بعضاً ورأوا الوحوش والدواب محسورة ، وفيها عشارهم التي كانت أنفُس أمواهم ، لم يعبئوا بها ، ولم يهتمهم أمرها ، ويحتمل تعطل العشار إبطال الله تعالى أملاك الناس عما كان ملكهم إياها في الدنيا ، وأهل العشار يرونها ، فلا يجدون إليها سبيلاً . وقيل : العشار : السحاب ، يعطل مما يكون فيه ، وهو الماء ، فلا يمطر . وقيل : العشار الديار ، تعطل فلا تسكن . وقيل : الأرض التي يعشر زرعها تعطل فلا تزرع ، والقول الأول أشهر وعليه من الناس الأكثر .

وقوله : ﴿ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾^(١) أي جمعت ، والحشر الجمع ، وقد تقدم .

وقوله ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾^(٢) . أي أوقدت ، وصارت نارا . رواه الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنه . وقال قتادة : غار ماؤها ، فذهب . وقال الحسن والضحاك : فاضت . قال ابن أبي زمنين : سجرت حقيقته ملئت ، فيفضي بعضها إلى بعض ، فتصير شيئاً واحداً . وهو معنى قول الحسن . ويقال : أن الشمس تلف ، ثم تلقى في البحار ، فمنها تحمى ، وتنقلب نارا . قال الحلبي : ويحتمل إن كان هذا هكذا أن البحار في قول من فسر التسجير بالامتلاء هو أن النار حينئذ تكون أكثرها ، لأن الشمس أعظم من الأرض مرات كثيرة ، فإذا كورت ، وألقيت في البحر ، فصارت نارا ، ازدادت امتلاء .

(١) سورة التكوير : ٥ .

(٢) سورة التكوير : ٦ .

وقوله : ﴿ وَإِذَا الْنُفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾^(١) تفسير الحسن أن تلحق كل شيعة شيعتها : اليهود باليهود ، والنصارى بالنصارى ، والمجوس بالمجوس ، وكل من كان يعبد من دون الله شيئا يلحق بعضهم ببعض ، والمنافقون بالمنافقين ، والمؤمنون بالمؤمنين . وقال عكرمة : المعنى تقرن بأجسادها ، أي ترد إليها ، وقيل : يقرن الغاوي بمن أغواه من شيطان أو إنسان . وقيل : يقرن المؤمنون بالخور العين ، والكافرون بالشياطين .

وقوله : ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُيِّتْ ﴾^(٢) يعني بنات الجاهلية ، كانوا يدفنونهن أحياء ، لخصلتين : إحداهما : كانوا يقولون إن الملائكة بنات الله ، فألحقوا البنات به . الثانية : مخافة الحاجة والإملاق ، وسؤال الموءودة على وجه التوبيخ لقاتلها ، كما يقال للطفل إذا ضرب : لم ضربت ؟ وما ذنبك ؟ وقال الحسن : أراد الله أن يوبخ قاتلها ، لأنها قتلت بغير ذنب . وبعضهم يقرأ : وإذا الموءودة سألت ، تعلق الجارية بأبيها ، فتقول : بأي ذنب قتلتني ؟ وقيل : معنى سئلت ، يسأل عنها كما قال : ﴿ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْغُولًا ﴾^(٣) .

وقوله : ﴿ وَإِذَا الْأَصْحَافُ نُشِرَتْ ﴾^(٤) أي للحساب وسيأتي .

وقوله : ﴿ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴾^(٥) قيل : معناه طويت ، كما قال الله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾^(٦) ، أي كطي الصحيفة على مافيهها ، فاللام بمعنى « على » ، يقال : كشطت السقف ، أي قلعته ، فكان

(١) سورة التكوير : ٧ .

(٢) سورة التكوير : ٨ .

(٣) سورة الإسراء : ٣٤ .

(٤) سورة التكوير : ١٠ .

(٥) سورة التكوير : ١١ .

(٦) سورة الأنبياء : ١٠٤ .

المعنى : قلعت ، فطويت والله أعلم ، والكشط والقشط سواء ، وهو القلع ،
وقيل : السجل كاتب للنبي ﷺ ، ولا يعرف في الصحابة من اسمه سجل .

وقوله ﴿ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ ﴾^(١) أي أوقدت . وقوله : ﴿ وَإِذَا الْجَنَّةُ
أُزْلِفَتْ ﴾^(٢) أي قربت لأهلها ، وأدנית .

﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴾^(٣) أي من عملها ، وهو مثل قوله ﴿ عَلِمَتْ
نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾^(٤) .

ومما قيل في وصف أهوال ذلك اليوم شعرا^(٥) :

مثل لنفسك أيها المغرور	يوم القيامة والساء تمور
إذ كورت شمس النهار وأدנית	حتى على رأس العباد تسير
وإذا النجوم تساقطت وتناثرت	وتبدلت بعد الضياء كدور
وإذا البحار تفجرت من خوفها	ورأيتهما مثل الجحيم تفور
وإذا الجبال تقلعت بأصولها	فرأيتهما مثل السحاب تسير
وإذا العشار تعطلت وتخربت	خلت الديار فما بها معمور
وإذا الوحوش لدى القيامة احشرت	وتقول . للأملاك أين تسير
وإذا تقاة المسلمين تزوجت	من حور عين زانهن شعور
وإذا الموؤدة سئلت عن شأنها	وبأي ذنب قتلها ميسور
وإذا الجليل طوى السماء بيمينه	طي السجل كتابه المنشور

(١) سورة التكوير : ١٢ .

(٢) سورة التكوير : ١٣ .

(٣) سورة التكوير : ١٤ .

(٤) سورة الانفطار : ٥ .

(٥) التذكرة للقرطبي : ٢١٤ .

وإذا الصحائف نشرت فتطايرت
وإذا السماء تكشطت عن أهلها
وإذا الجحيم تسعرت نيرانها
وإذا الجنان تزخرفت وتطيت
وإذا الجنين بأمه متعلق
هذا بلا ذنب يخاف جنيته
وتهتكت للمؤمنين ستور
ورأيت أفلاك السماء تدور
فلها على أهل الذنوب زفير
لفتى على طول البلاء صبور
يخشى القصاص وقلبه مذعور
كيف المصر على الذنوب دهور

المطلب السابع المحاسبي يصور أهوال ذلك اليوم

يقول الحارث المحاسبي رحمه الله واصفا ما يقع في ذلك اليوم من أهوال :
« حتى إذا تكاملت عدة الموتى ، وخلت من سكانها الأرض والسماء ،
فصاروا خامدين بعد حركاتهم ، فلا حسّ يسمع ، ولا شخص يُرى ، وقد بقي
الجبار الأعلى كما لم يزل أزلياً واحداً منفرداً بعظمته وجلاله ، ثم لم يفجأ روحك إلا
بنداء المنادي لكل الخلائق معك للعرض على الله عز وجل بالذل والصغار منك
ومنهم . فتوهم كيف وقوع الصوت في مسامعك وعقلك وتفهم بعقلك بأنك تدعى
إلى العرض على الملك الأعلى ، فطار فؤادك ، وشاب رأسك للنداء ، لأنها صيحة
واحدة بالعرض على ذي الجلال والإكرام والعظمة والكبرياء - فبينما أنت فزع
للصوت إذ سمعت بانفراج الأرض على رأسك ، فوثبت مغبراً من قرنك إلى قدمك
بغبار قبرك قائم على قدميك ، شاخص ببصرك نحو النداء ، وقد ثار الخلائق كلهم
معك ثورة واحدة وهم مغبرون من غبار الأرض التي طال فيها بلاؤهم .

فتوهم ثورتهم بأجمعهم بالرعب والفزع منك ومنهم ، فتوهم نفسك بعريك
ومذلتك وانفرادك بخوفك وأحزانك وغمومك وهمومك في زحمة الخلائق ، عراة

حفاة صموت أجمعون بالذلة والمسكنة والمخافة والرهبية ، فلا تسمع إلا همس أقدامهم والصوت لمدة المنادي ، والخلائق مقبلون نحوه ، وأنت فيهم مقبل نحو الصوت ، ساع بالخشوع والذلة ، حتى إذا وافيت الموقف ازدحمت الأمم كلها من الجن والإنس عراة حفاة ، قد نزع الملك من ملوك الأرض ولزمتهم الذلة والصغار ، فهم أذل أهل الجمع وأصغرهم خلقة وقدراً بعد عتوهم وتجبرهم على عباد الله عز وجل في أرضه .

ثم أقبلت الوحوش من البراري وذرى الجبال منكسة رؤوسها لذال يوم القيامة بعد توحشها وانفرادها من الخلائق ذليلة ليوم النشور لغير بليّة نابتها ولا خطيئة أصابتها ، فتوهم إقبالها بذلها في اليوم العظيم ليوم العرض والنشور .

وأقبلت السباع بعد ضراوتها وشهامتها منكسة رؤوسها ذليلة ليوم القيامة حتى وقفت من وراء الخلائق بالذل والمسكنة والانكسار للملك الجبار ، وأقبلت الشياطين بعد عتوها وتمردها خاشعة لذل العرض على الله سبحانه فسبحان الذي جمعهم بعد طول البلاء واختلاف خلقهم وطبائعهم وتوحش بعضهم من بعض قد أذلهم البعث وجمع بينهم النشور .

حتى إذا تكاملت عدة أهل الأرض من إنسها وجنها وشياطينها ووحوشها وسباعها وأنعامها وهوامها ، واستووا جميعاً في موقف العرض والحساب تناثرت نجوم السماء من فوقهم وطمست الشمس والقمر ، وأظلمت الأرض بخمود سراجها وإطفاء نورها . فبينما أنت والخلائق على ذلك إذ صارت السماء الدنيا من فوقهم ، فدارت بعظمتها من فوق رؤوسهم ، وذلك بعينك تنظر إلى هول ذلك ، ثم انشقت بغلظها خمسمائة عام ، فإيا هول صوت انشقاقها في سمعك ، ثم تمزقت

وانفطرت بعظيم هول يوم القيامة والملائكة قيام على أرجائها وهي حافات ما يتشقق ويتفطر ، فما ظنك بهول تنشق فيه السماء بعظمها ، فأذاها ربها حتى صارت كالفضة المذابة تخالطها صفرة لفرع يوم القيامة كما قال الجليل الكبير : ﴿ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴾^(١) ، ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴾^(٢) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿^(٣) ؟

فبيننا ملائكة السماء الدنيا على حافتها إذ انحدروا محشورين إلى الأرض للعرض والحساب ، وانحدروا من حافتها بعظم أجسامهم وأخطارهم وعلو أصواتهم بتقديس الملك الأعلى الذي أنزلهم محشورين إلى الأرض بالذلة والمسكنة للعرض عليه والسؤال بين يديه .

فتوهم تحدرهم من السحاب بعظيم أخطارهم وكبير أجسامهم وهول أصواتهم وشدة فرقهم منكسين لذل العرض على الله عز وجل . فيا فزعك وقد فزع الخلائق مخافة أن يكونوا أمروا بهم ، ومسألتهم إياهم : أفیکم ربنا ؟ ففزع الملائكة من سؤلهم إجلالاً للمليکهم أن يكون فيهم ، فنادوا بأصواتهم تنزيلاً لما توهمه أهل الأرض : سبحان ربنا ليس هو بيننا فهو آتٍ ، حتى أخذوا مصافهم محدقين بالخلائق منكسين رؤوسهم لذل يومهم . فتوهمهم ، وقد تسربلوا بأجنحتهم ونكسوا رؤوسهم في عظم خلقهم بالذل والمسكنة والخشوع لربهم ، ثم كل شيء على ذلك وكذلك إلى السماء السابعة كل أهل سماء مضعفين بالعدد ، وعظم الأجساد ، وكل أهل سماء محدقين بالخلائق صفا .

حتى إذا وافى الموقف أهل السموات السبع والأرضين السبع كسيت الشمس حر عشر سنين وأدنيت من رؤوس الخلائق قاب قوس أو قوسين ، ولا

(١) سورة الرحمن : ٣٧ .

(٢) سورة المعارج : ٨ - ٩ .

ظل لأحد إلا ظلَّ عرش رب العالمين ، فمن بين مستظل بظل العرش ، وبين مضحو بحر الشمس ، قد صهرته بحرهما واشتد كربه وقلقه من وهجها ، ثم ازدحمت الأمم وتدافعت ، فدفع بعضهم بعضاً وتضايقت فاختلفت الأقدام وانقطعت الأعناق من العطش واجتمع حر الشمس ووهج أنفاس الخلائق وتزاحم أجسامهم ، ففاض العرق منهم سائلاً حتى استنقع على وجه الأرض ثم على الأبدان على قدر مراتبهم ومنازلهم عند الله عز وجل بالسعادة والشقاء ، حتى إذا بلغ من بعضهم العرق كعبيه ، وبعضهم حقويه ، وبعضهم إلى شحمه أذنيه ، ومنهم من كاد أن يغيب في عرقه ومن قد توسط العرق من دون ذلك منه .

عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الرجل (وقال مرة إن الكافر) ليقوم يوم القيامة في بحر رشحه إلى أنصاف أذنيه من طول القيام » .

وعن عبدالله رفعه إلى النبي ﷺ « إن الكافر يلجم بعرقه يوم القيامة من بطول ذلك اليوم ، (وقال علي : من طول القيام . قالاً جميعاً) حتى يقول : رب أرحني ولو إلى النار . وأنت لامحالة أحدهم ، فتوهم نفسك راجعة لكربك وقد علاك العرق ، وأطبق عليك الغم ، وضائق نفسك في صدرك من شدة العرق والفرع والرعب ، والناس معك منتظرون لفصل القضاء إلى دار السعادة أو إلى دار الشقاء ، حتى إذا بلغ المجهود منك ومن الخلائق منتهاه ، وطال وقوفهم لا يكلمون ولا ينظرون في أمورهم .

عن قتادة أو كعب ، قال : يوم يقوم الناس لرب العالمين . قال : « يقومون مقدار ثلاثمائة عام ، قال سمعت الحسن يقول : ما ظنك بأقوام قاموا لله عز وجل على أقدامهم مقدار خمسين ألف سنة لم يأكلوا فيها أكلة ولم يشربوا فيها شربة ،

حتى إذا انقطعت أعناقهم من العطش ، واحترقت أجوافهم من الجوع انصرف بهم إلى النار ، فسقوا من عين آنية قد آن حرها ، واشتد نفحها ، فلما بلغ المجهود منهم ما لا طاقة لهم به كلم بعضهم بعضاً في طلب من يكرم على مولاه أن يشفع لهم في الراحة من مقامهم وموقفهم لينصرفوا إلى الجنة أو إلى النار من وقوفهم ففزعوا إلى آدم ونوح ومن بعده إبراهيم ، وموسى وعيسى من بعد إبراهيم ، كلهم يقول لهم : إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله ، فكلهم يذكر شدة غضب ربه عز وجل وينادي بالشغل بنفسه فيقول : نفسي نفسي ، فيشتغل بنفسه عن الشفاعة لهم إلى ربهم لإهتمامه بنفسه وخلاصها ، وكذلك يقول الله عز وجل : ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ مُّجَدِّدًا عَنْ نَفْسِهَا ﴾ (١) .

فتوهم أصوات الخلائق وهم ينادون بأجمعهم ، منفرد كل واحد منهم بنفسه ، ينادي نفسي نفسي ، فلا تسمع إلا قول نفسي نفسي . فياهول ذلك وأنت تنادي معهم بالشغل بنفسك والاهتمام بخلاصها من عذاب ربك وعقابه ، فما ظنك بيوم ينادي فيه المصطفى آدم ، والخليل إبراهيم ، والكليم موسى ، والروح والكلمة عيسى مع كرامتهم على الله - عز وجل - وعظم قدر منازلهم عند الله عز وجل ، كل ينادي : نفسي نفسي ، شفقا من شدة غضب ربه ، فأين أنت منهم في اشفاقك في ذلك اليوم واشتغالك بذلك اليوم ، وبخزتك وبخوفك ؟ حتى إذا أيس الخلائق من شفاعتهم أتوا النبي محمداً ﷺ فسألوه الشفاعة إلى ربهم فأجابهم إليها ، ثم قام إلى ربه عز وجل واستأذن عليه فأذن له ثم خرَّ لربه

(١) سورة النحل : ١١١ .

ساجداً ، ثم فتح عليه من محامده والثناء عليه لما هو أهله ، وذلك كله بسمعك
وأسماع الخلائق ، حتى أجابه ربه عز وجل إلى تعجيل عرضهم والنظر في
أمورهم^(١) .

(١) كتاب التوهم والأهوال : ص ٥ .

o b e i k a n d i . c o m

الفصل الثامن أحوال الناس في يوم القيامة

تختلف أحوال الناس في ذلك اليوم اختلافاً بينا ، وسنعرض هنا لثلاثة :
الكفار ، وعصاة الموحدين ، والأتقياء الصالحين .

المبحث الأول حال الكفار

المطلب الأول

ذلتهم وهوانهم وحسرتهم ويأسهم

الذي يتأمل في نصوص الكتاب والسنة التي تحدثنا عن مشاهد القيامة يرى
الأهوال العظام والمصائب الكبار التي تنزل بالكفرة المجرمين في ذلك اليوم
العظيم .

وسنعرض في هذا المبحث بعض المشاهد التي يصفها القرآن الكريم .

١ - قال تعالى مبينا حال الكفار عند خروجهم من القبور ﴿ يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ
الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَانَهُمْ إِلَى نُصْبٍ يُوفِضُونَ ﴾ (٤٣) خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِقُهُمْ ذَلَّةٌ
ذَلِكَ الْيَوْمِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿ (١) .

(١) سورة المعارج : ٤٣ .

الأجداث هي القبور ، والنص يصور سرعة خروجهم من القبور في ذلك اليوم منطلقين إلى مصدر الصوت كأنهم يسرعون إلى الأنصاب التي كانوا يعبدونها في الدنيا ، ولكنهم اليوم لا ينطلقون فرحين أشرين بطرين كما كان حالهم عندما كانوا يقصدون الأنصاب ، بل هم أذلاء ، أبصارهم خاشعة ، والصغار يعلوهم ، على النعت الذي كان يعدهم الله به في الدنيا .

٢ - وقال تعالى : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكْرٍ ۖ خُشَعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۗ مَهْطَعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكٰفِرُونَ هٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۗ ۱﴾ .

وهذه الآية تنص على ما نصت عليه الآيات السابقة من خروجهم خاشعي الأبصار أذلاء ، مسرعين إلى مصدر الصوت الذي يناديهم ويدعوهم ، وتزيدنا بيانا باعطائنا صورة حياة لمشهد البعث والنشور ، فحالهم في ذلك اليوم في حركتهم وانطلاقتهم وهم يخرجون مسرعين كحال الجراد المنتشر ، ويفيدنا النص أيضا اعتراف الكفار في ذلك اليوم بصعوبة موقفهم ﴿ يَقُولُ الْكٰفِرُونَ هٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۗ ۲﴾ .

٣ - ويفيدنا نص ثالث أن الكفار ينادون بالويل والثبور عندما ينفخ في الصور متسائلين عمن أقامهم من رقدتهم .

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ۗ ۳﴾ قَالُوا يٰوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۗ ۳﴾ .

(١) سورة القمر : ٨٦ .

(٢) سورة القمر : ٨ .

(٣) سورة يس : ٥١ .

وقد كان أبو محكم الجسري يجتمع إليه إخوانه ، وكان حكيماً ، فإذا تلى الآية السابقة بكى ، ثم قال :

« إن القيامة ذهبت فظاعتها بأوهام العقول ، أما والله لئن كان القوم في رقدة مثل ظاهر قولهم ، لما دعوا بالويل عند أول وهلة من بعثهم ، ولم يوقفوا بعد موقف عرض ولا مسألة إلا وقد عابنوا خطراً عظيماً ، وحقت عليهم القيامة بالجلاتل من أمرها ، ولكن كانوا في طول الإقامة في البرزخ يألمون ويعذبون في قبورهم ، وما دعوا بالويل عند انقطاع ذلك عنهم ، إلا وقد نقلوا إلى طامة هي أعظم منه ، ولولا أن الأمر على ذلك ما استصغر القوم ما كانوا منه ، فسموه رقادا ، وإن في القرآن لدليلاً على ذلك : ﴿ فَإِذَا جَاءَتْ الطَّامَةُ الْكُبْرَى ﴾ ^(١) ، ثم يبكي حتى يبيل لحيته » ^(٢) .

٤ - ويضيف نص آخر ملامح جديدة إلى صورتهم حال بعثهم ، فأبصارهم لشدة الهول شاخصة جاحظة ، وأفئدتهم خالية إلا من الهول الذي يحيط بهم ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴾ ^(٣) .

يقول الأستاذ سيد قطب - رحمه الله وأجزل له المثوبة - في تفسير هذه الآيات : « والرسول ﷺ - لا يحسب الله غافلاً عما يعمل الظالمون ، ولكن ظاهر الأمر يبدو هكذا لبعض من يرون الظالمين يتمتعون ، ويسمع بوعيد الله ، ثم لا يراه واقعا بهم في الحياة الدنيا ، فهذه الصيغة تكشف عن الأجل

(١) سورة النازعات : ٣٤ .

(٢) النهاية لابن كثير : (٢٧٤/١) .

(٣) سورة إبراهيم : ٤٢ - ٤٣ .

المضروب لأخذهم الأخذة الأخيرة ، التي لا إمهال بعدها ، ولا فكاك منها ، أخذهم في اليوم العصيب الذي تشخص فيه الأبصار من الفزع والهلع ، فتظل مبهوته مذهولة ، مأخوذة بالهول لا تطرف ولا تتحرك .

ثم يرسم مشهدا للقوم في زحمة الهول . . مشهدهم مسرعين لا يلوون على شيء ، ولا يلتفتون إلى شيء ، رافعين رؤوسهم ، لاعن إرادة ، ولكنها مشدودة ، لا يملكون لها حراكا . يمتد بصرهم إلى ما يشاهدون من الرعب ، فلا يطرف ولا يرتد إليهم ، وقلوبهم من الفزع خاوية خالية ، لا تضم شيئا يعونه أو يحفظونه ، أو يتذكرونه ، فهي هواء خاوية . هذا هو اليوم الذي يؤخرهم الله إليه ، حيث يقفون هذا الموقف ، ويعانون هذا الرعب ، الذي يرتسم من خلال هذه المقاطع الأربعة ، مذهلاً أخذاً بهم كالطائر الصغير في مخالب الباشق الرعب :

﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْعَلْتُمْ هَوَاءً ﴿١﴾ .

فالسرعة المهرولة المدفوعة ، في الهيئة الشاخصة المكروهة المشدودة ، مع القلب المفزع الطائر الخاوي من كل وعي من الإدراك . . كلها تشي بالهول الذي تشخص فيه الأبصار» (٢) .

٥ - ويصور القرآن الفزع الذي يسيطر على نفوس الكفار في يوم الموقف العظيم فيقول : ﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْأَازِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَتَائِبِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿٣﴾ .

(١) سورة إبراهيم : ٤٢ .

(٢) في ظلال القرآن : (٢١١١/٤) .

(٣) سورة غافر : ١٨ .

« والآزقة ... القرية العاجلة ... هي القيامة ، واللفظ يصورها كأنها زاحفة والأنفاس من ثم مكروية لاهثة ، وكأنما القلوب المكروية تضغط على الحناجر ، وهم كاظمون لأنفاسهم ولآلامهم ولخاوفهم ، والكظم يكرهم ، ويثقل على صدورهم ، وهم لا يجدون حمية يعطف عليهم ، ولا شفيعا ذا كلمة تطاع في هذا الموقف العصيب المكروب» (١) .

٦- وما كان هؤلاء في حكم الله مجرمين متمردين على خالقهم وإلههم ، مستكبرين عن عبادته وطاعته - فإنه يؤق بهم إلى ربهم وخالقهم مقرنين في الأصفاد ، مسربلين بالقطران تغشى وجوههم النار ، ويا لفظاعة حالهم ، وعظم ما يلقون ﴿ يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ (٢) وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَّابِلُهُمْ مِّنْ قَطْرَانَ وَتَغْشَىٰ وُجُوهُهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾ .

يقول الطبري رحمه الله في تفسير هذه الآيات : « وتعاین الذين كفروا بالله ، فاجتروا في الدنيا الشرك يومئذ ، يعني يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات ، ﴿ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴾ (٣) ، يقول : مقرنة أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم بالأصفاد ، وهي الوثاق من غلّ وسلسلة ، واحدا صفاً» (٤) .

والسراويل : هي القمص التي يلبسونها ، والقطران : المادة التي تطلّى بها الإبل إذا أصابها الجرب ، وقيل : القطران النحاس .

٧- وتدنو الشمس من رؤوس العباد في ذلك اليوم حتى لا يكون بينها وبينهم إلا

(١) في ظلال القرآن : ٣٠٧٤/٦ .

(٢) سورة إبراهيم : ٤٨ - ٥٠ .

(٣) سورة إبراهيم : ٤٩ .

(٤) تفسير ابن جرير الطبري : (٢٥٤/١٣) .

إلا مقدار ميل واحد ، ولولا أنهم مخلوقون خلقاً غير قابل للفناء لانصهروا
وذابوا وتبخروا ، ولكنهم بعد الموت لا يموتون .

ويذهب عرقهم في الأرض حتى يرونها ، ثم يرتفع فوق الأرض ، ويأخذهم
على قدر أعمالهم . ففي صحيح مسلم عن المقداد بن الأسود قال : سمعت
رسول الله ﷺ يقول : « تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق ، حتى تكون
منهم كمقدار ميل »

قال سليم بن عامر : فوالله ما أدري ما يعني بالميل ؟ أمسافة الأرض ، أم
الميل الذي تكتحل به العين .

قال : « فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق ، فمنهم من يكون إلى
كعبه . ومنهم من يكون إلى ركبتيه . ومنهم من يكون إلى حنجره . ومنهم
من يلجمه العرق إلجاما » .
قال : وأشار رسول الله بيده إلى فيه^(١) .

وفي صحيح البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما ، عن
النبي ﷺ ، « يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ »^(٢) ، قال : « يقوم أحدهم
في رشحه إلى أنصاف أذنيه »^(٣) .

وفي صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول
الله ﷺ قال : « يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض

(١) صحيح مسلم ، كتاب الجنة ، باب في صفة القيامة . (٢١٩٦/٤) ، ورقمه : (٢٨٦٤) .

(٢) سورة المطففين : ٦ .

(٣) رواه البخاري في كتاب الرقاق ، باب قول الله تعالى : « أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ » ، فتح
الباري ، (٣٩٢/١١) . ورواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها ، باب في صفة يوم القيامة ،
[٢٨٦٢/٤] ، ورقمه : ٢٨٦٢ .

سبعين ذراعاً ، ويلجمهم حتى يبلغ آذانهم» (١) .

٨ - وعندما يرى الكفار العذاب والهوان الذي يصيب الكفرة المشركين يصيهم الحسرة والندم ، ولكثرة حسرة العذاب سمي الله ذلك اليوم بيوم الحسرة ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٢) .

ولشدة تحسر الكافر وندمه على عدم اتباعه للرسول الذي بعث إليه ، واتباعه لأعداء الرسل ، فإنه يعرض على يديه ﴿وَيَوْمَ يَعِضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلْبِسَنِي أَنحَدْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ (٣) يَتَوَلَّى لَيْتَنِي لَمْ أَنحَدْ فَلَنَا خَلِيلًا﴾ (٤) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ (٥) .

٩ - وفي ذلك اليوم يوقن الكفار أن ذنبهم غير مغفور ، وعذرهم غير مقبول ، فيأسوا من رحمة الله ، ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (٦) .

١٠ - ويتمنى الكفار في ذلك اليوم أن يهلكهم الله ، ويجعلهم تراباً ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ (٧) ، ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلْبِسَنِي كُنْتُ تَرَابًا﴾ (٨) ، فما بالك بأقوام كانت مناياهم هي غاية المنى !!

(١) المصادر السابقة ، والسياق للبخاري .

(٢) سورة مريم : ٣٩ .

(٣) سورة الفرقان : ٢٧ - ٢٨ .

(٤) سورة الروم : ١٢ .

(٥) سورة النساء : ٤١ .

(٦) سورة النبا : ٤٠ .

المطلب الثاني

إحباط أعمالهم

أعمال الكفار قसान : قسم هو طغيان وبغي وإفساد في الأرض ونحو ذلك ، فهذه أعمال باطلة فاسدة لا يرجو أصحابها من ورائها خيرا ، ولا يتوقعون عليها ثوبا .

وقد شبه القرآن هذه الأعمال بالظلمات التي يركب بعضها بعضا ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظَلَمَاتٍ بَعْضُهُا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدُهُ لَمْ يَكَدْ يَرِنُهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ (١) .

والقسم الثاني : أعمال يظنون أنها تغني عنهم من الله شيئا ، كالصدقة والعتاق وصلة الأرحام والإنفاق في سبيل الخير ، وقد ضرب الله في كتابه لهذا النوع من الأعمال أمثلة .

فشبهها في بعض المواضع بالسراب الذي يظنه رائيه ماء ، ولكنه عندما يأتيه - وهو يؤمل أن يصل إليه فيروي غلته ، ويذهب ظمأه - لا يجده شيئا ، ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوهُمْ كَسْرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (٢) .

وشبهها في موضع آخر بالرياح الشديدة الباردة تهب على الزروع والثمار فتدمرها ، ﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرَاصَاتٌ حَرَتْ قَوْمًا ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتُهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنِ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (٣) ،

(١) سورة النور : ٤٠

(٢) سورة النور : ٣٩ .

(٣) سورة آل عمران : ١١٧ .

والصر : البرد الشديد ، وهذه الرياح الباردة هي الكفر والشرك التي تحرق أعمالهم الصالحة .

وشبهها في موضع ثالث بالرماد الذي جاءته ريح عاصف فذرتة في كل مكان ، فكيف يستطيع صاحبه جمعه بعد تفرقه !! ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾ (١) .

ولذلك فإن الله يجعل أعمال الكفار هباء منثورا ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ (٢) .

وهذا الفريق الذي يظن أنه على خير يفاجأ يوم القيامة بأن عمله باطل ضائع ، ومن هؤلاء عباد اليهود والنصارى بعد البعثة النبوية ، فإن فريقا منهم يجهدون أنفسهم بالعبادة، وفعل الخيرات ، ويظنون أن ذلك ينفعهم عند الله تبارك وتعالى ، وكذلك الذين انتسبوا إلى الإسلام ، ولكنهم أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، وعبدوا غير الله ، كل هؤلاء لا تنفعهم أعمالهم ، ولا يقيم الله لهم يوم القيامة وزنا ، ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴾ ﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَايَتِ رَبِّهِمْ وَلِقَايَاهُ فَحَبَّطَتْ أَعْمَالَهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا ﴾ ﴿ ذَلِكَ جَزَاءُهمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوعًا ﴾ (٣) .

وقد سأل مصعب بن سعد أباه سعد بن أبي وقاص عن الأخسرين أعمالا ، فقال : « هم اليهود والنصارى ، أما اليهود فكذبوا محمدا ﷺ ، وأما النصارى

(١) سورة إبراهيم : ١٨ .

(٢) سورة الفرقان : ٢٣ .

(٣) سورة الكهف : ١٠٣ - ١٠٦ .

فكفروا بالجنة ، وقالوا : لا طعام فيها ولا شراب» (١) .

وإنما كان اليهود والنصارى من الأخسرين أعمالا ، لأن كثيرا منهم يظنون أنفسهم على الحق ، ويجتهدون في العبادة ، وحقيقة الأمر أنهم خاسرون ، لأنهم يكفرون برسول الله الخاتم ، وكتابه المنزل ، مع كفرهم بكثير مما أنزل إليهم من ربه ، وإيمانهم بالمحرف من دينهم .

فهذه الأعمال التي يظن الكفرة أنها نافعتهم في يوم الدين لا وزن لها ولا قيمة لها في ذلك اليوم لأنها قامت على غير أساس ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٢) والأساس هو الإسلام ، فإلم يكن المرء مسلما موحدا فعمله مردود ، وسعيه موزور غير مشكور ، روى مسلم في صحيحه عن عائشة قالت : يا رسول الله ، ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ، ويطعم المسكين ، فهل ذلك نافعه ؟ قال : لا ينفعه ، إنه لم يقل يوما : رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين» (٣) .

المطلب الثالث

تخاصم أهل النار

عندما يعاين الكفرة أعداء الله ما أعد لهم من العذاب ، وما هم فيه من أهوال يمقتون أنفسهم كما يمقتون أحبائهم وخلانهم في الحياة الدنيا ، بل تنقلب كل محبة لم تقم على أساس من الإيمان إلى عدا ، قال تعالى : ﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ

(١) صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، سورة رقم : (١٨) فتح الباري : (٤٢٥/٨) .

(٢) سورة آل عمران : ٨٥ .

(٣) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، باب أهون أهل الدنيا عذابا ، (١/١٩٦) ورقم الحديث ٢١٤ .

بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿١﴾ ، وعند ذلك يخاصم أهل النار بعضهم بعضاً ، ويحاج بعضهم بعضاً ، العابدون المعبودين ، والأتباع السادة المتبوعين ، والضعفاء المتكبرين ، والإنسان قرينه ، بل يخاصم الكافر أعضاءه .

١- أما مخاصمة العابدين المعبودين : ففي قوله تعالى : ﴿ وَبَرَزْتَ الْجَحِيمَ لِلْغَاوِينَ ﴿١١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿١٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكَ أَوْ يَنْصُرُونَ ﴿١٣﴾ فَكَبُّوا فِيهَا هَمًّا وَالْغَاوُونَ ﴿١٤﴾ وَجُنُودُ إبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿١٦﴾ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لِنِي ضَلَّلِ مُبِينٍ ﴿١٧﴾ إِذْ نَسُواكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ (٢) إنهم يخاطبون آلهتهم التي كانوا يعبدون ، معترفين بضلالهم إذ كانوا يعبدونها ، ويسوون بينها وبين الخالق ، وقد خاب وخسر من رفع المخلوق إلى مرتبة الخالق ، وكل من عبد من دون الله آلهة ، فقد سوى بين الخالق والمخلوق ، وهذا هو الظلم العظيم ، كما قال لقمان لابنه وهو يعظه : ﴿ يَا بَنِيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (٣) .

أما الصالحون الأخيار الذين عُبدوا وهم لا يعلمون ، أو عبدوا بغير رضاهم كالملائكة وصالحى البشر ، فإنهم يتبرؤون من عابديهم ، ويكذبون زعم العابدين واقتراءهم ، فإن الملائكة ما طلبت هذه العبادة ، ولا رضيت بها ، والذين طلبوها هم الجن ، كي يضلوا البشر ويوقوهم ، فهؤلاء الضالون عبادون للجن لا للملائكة ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَكَةِ أَهْتُولَاءُ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤﴾ قَالُوا سُبْحٰنَكَ أَنْتَ وَلِيْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرَهُمْ بِسْمِ مُؤْمِنُونَ ﴾ (٤) .

(١) سورة الزخرف : ٦٧ .

(٢) سورة الشعراء : ٩١ - ٩٩ .

(٣) سورة لقمان : ١٣ .

(٤) سورة سبأ : ٤٠ - ٤١ .

وعيسى بن مريم يتبرأ في يوم الدين من الذين اتخذوه إلهًا وعبدوه من دون الله ، ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْصِي أَمْرًا مَرِيَمَ ۖ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۖ تَعَلَّمْ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ ۚ إِنْ أَعْبَدُوا إِلَهًا رَبِّي وَرَبَّكُمْ . ﴿١﴾

هذا موقف جميع المعبودات التي لم ترض باتخاذها آلهة ، تتبرأ من عابديها ، وتكذبهم في دعواهم ، وتقر بعبوديتها لله ربها ، ﴿ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١٧﴾ وَالْقَوَا إِلَى اللَّهِ يُؤْمِدُ السَّلْمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١١٨﴾

وقال في موضع آخر : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ فزِيلْنَا بينهم وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا بَنَاتُنَا عَبَدُودٌ ﴿١١٩﴾ فَكُنِّي بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لِغُفْلِينَ ﴿١٢٠﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٢١﴾

٢ - وأما تخاصم الأتباع مع قادة الضلال من أصحاب الفكر ، والنظريات

الضالة ، والمبادئ المناقضة للإسلام ، فقد ذكرها الله في موضع آخر فقال :

﴿ فَأَمَّا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الَّذِينَ ﴿١٢٣﴾ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٢٤﴾ أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿١٢٥﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿١٢٦﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ

(١) سورة المائدة : ١١٦ - ١١٧ .

(٢) سورة النحل : ٨٦ - ٨٧ .

(٣) سورة يونس : ٢٨ - ٣٠ .

مَسْئُولُونَ ﴿٢١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنصُرُونَ ﴿٢٢﴾ بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٤﴾ قَالُوا إِنَّا كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٥﴾ قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٦﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَافِينَ ﴿٢٧﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٢٨﴾ فَأَغْوَيْتَكُمُ إِذَا كُنَّا غُورِينَ ﴿٢٩﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٢﴾ (١) .

وهذا المذكور في هذه الآيات هو تلاوم أهل النار في عرصات القيامة ، فالأتباع يقولون لقادة الضلال أنتم الذين كنتم تزينون لنا الباطل ، وتغروننا بمخالفة الحق ، كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴾ (٢) ، ولكن القادة ورجال الفكر والزعماء يرفضون هذا ، ويقولون لهم : أنتم تتحملون نتيجة أعمالكم ، فقد اخترتم الكفر ، ولم يكن لنا من سلطان عليكم ، إن طغيانكم واستكباركم هو الذي أوصلكم إلى هذه النهاية .

٣ - أما محاصرة الضعفاء للسادة من الملوك والأمراء وشيوخ العشائر الذين كانوا يتسلطون على العباد ، ويشدُّ الضعفاء أزرهم ، ويعينوهم على باطلهم بالنفس والمال فقد ذكرها الله تعالى في قوله : ﴿ وَبَرَّزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهْدِيئِكُمْ سِوَاءَ عَلَيْنَا أَجْرٌ عَنَّا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ ﴾ (٣) ، ولندع الداعية المفسر الأستاذ سيد قطب رحمه الله ، وأجزل له المثوبة يفسر لنا هذه الآيات الكريمة ، ولننعم معه في الظلال . . . (وَبَرَّزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا ..) (٤) الطغاة المكذبون ، وأتباعهم من الضعفاء

(١) سورة الصافات : ١٩ - ٣٥

(٢) سورة البقرة : ٢٥٧ .

(٣) سورة إبراهيم : ٢١ .

(٤) سورة إبراهيم : ٢١ .

المستذلين ... ومعهم الشيطان ... ثم الذين آمنوا بالرسل وعملوا الصالحات ... برزوا « جميعاً » مكشوفين . وهم مكشوفون لله دائماً ، ولكنهم الساعة يعلمون ويحسون أنهم مكشوفون لا يجيبهم حجاب ، ولا يسترهم ساتر ، ولا يقيههم واق ... برزوا وامتألت الساحة ورفع الستار ، وبدأ الحوار : « فقال الضعفاء للذين استكبروا : إنا كنا لكم تبعاً . فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء ؟ » . . والضعفاء هم الضعفاء . هم الذين تنازلوا عن أخص خصائص الإنسان الكريم على الله حين تنازلوا عن حريتهم الشخصية في التفكير والاعتقاد والاتجاه ؛ وجعلوا أنفسهم تبعاً للمستكبرين والطغاة . ودانوا لغير الله من عبيده واختاروها على الدينونة لله . والضعف ليس عذراً ، بل هو الجريمة ؛ فما يريد الله لأحد أن يكون ضعيفاً ، وهو يدعو الناس كلهم إلى حماه يعتزون به والعزة لله . وما يريد الله لأحد أن ينزل طائعاً عن نصيبه في الحرية - التي هي ميزته ومناط تكريمه - أو أن ينزل كارهاً . والقوة المادية - كائنة ما كانت - لا تملك أن تستعبد إنساناً يريد الحرية ، ويستمسك بكرامته الأدمية . فقصارى ما تملكه تلك القوة أن تملك الجسد ، تؤذيه وتعذبه وتكبله وتحبسه . أما الضمير . أما الروح . أما العقل . فلا يملك أحد حبسها ولا استدلالها ، إلا أن يسلمها صاحبها للحبس والإذلال !

من ذا الذي يملك أن يجعل أولئك الضعفاء تبعاً للمستكبرين في العقيدة ، وفي التفكير ، وفي السلوك ؟ من ذا الذي يملك أن يجعل أولئك الضعفاء يدينون لغير الله ، والله هو خالقهم ورازقهم وكافلهم دون سواه ؟ لا أحد . لا أحد إلا أنفسهم الضعيفة . فهم ضعفاء لأنهم أقل قوة مادية من الطغاة ، ولا لأنهم أقل جاهاً أو مالاً أو منصباً أو مقاماً . . كلا ، إن هذه كلها أعراض خارجية لا تعد بذاتها ضعفاً يلحق صفة الضعف بالضعفاء . إنما هم ضعفاء لأن الضعف في

أرواحهم وفي قلوبهم وفي نخوتهم وفي اعتزازهم بأخص خصائص الإنسان !
إن المستضعفين كثرة ، والطواغيت قلة . فمن ذا الذي يخضع الكثرة
للقلة ؟ وماذا الذي يخضعها ؟ إنما يخضعها ضعف الروح ، وسقوط الهمة ، وقلة
النخوة ، والتنازل الداخلي عن الكرامة التي وهبها الله لبني الإنسان ! .

إن الطغاة لا يملكون أن يستذلوا الجماهير إلا برغبة هذه الجماهير . فهي
دائماً قادرة على الوقوف لهم لو أرادت . فالإرادة هي التي تنقص هذه القطعان ! .

إن الذل لا ينشأ إلا عن قابلية للذل في نفوس الأذلاء . وهذه القابلية هي
وحدها التي يعتمد عليها الطغاة !! والأذلاء هنا على مسرح الآخرة في ضعفهم
وتبعيتهم للذين استكبروا يسألونهم :

﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ (١) ؟ ..

وقد اتبعناكم فانتهينا إلى هذا المصير الأليم ؟!

أم لعلهم وقد رأوا العذاب يهمون بتأنيب المستكبرين على قيادتهم لهم هذه
القوادة ، وتعريضهم إياهم للعذاب ؟ إن السياق يحكي قولهم وعليه طابع الذلة
على كل حال ! .

ويرد الذين استكبروا على ذلك السؤال :

﴿ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ

مَحِصٍ ﴾ (٢) ..

وهورد يبدو فيه البرم والضيق :

« لو هداانا الله لهديناكم » ..

فعلام تلومونا ونحن وإياكم في طريق واحد إلى مصير واحد ؟ إننا لم نهند

(١) سورة ابراهيم : ٢١ .

(٢) سورة ابراهيم : ٢١ .

ونفضلكم . ولو هدانا الله لقدناكم إلى الهدى معنا ، كما قدناكم حين ضللنا إلى الضلال ! وهم ينسبون هداهم وضلالهم إلى الله . فيعترفون الساعة بقدرته وكانوا من قبل ينكرونه وينكرونها ، ويستطيرون على الضعفاء استطالة من لا يجب حساباً لقدرة القاهر الجبار . وإنما يتهربون من تبعة الضلال والإضلال برفع الأمر لله .. والله لا يأمر بالضلال كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ﴾ (١) . ثم هم يؤنبون الضعفاء من طرف خفي ، فيعلنوا لهم بأن لا جدوى من الجزع كما أنه لا فائدة من الصبر . فقد حق العذاب ، ولا راد له من صبر أو جزع ، وفات الأوان الذي كان الجزع فيه من العذاب يجدي فيرد الضالين إلى الهدى ، وكان الصبر فيه على الشدة يجدي فتدركهم رحمة الله . لقد انتهى كل شيء ، ولم يعد هنالك مفر ولا محيص :

﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ ﴾ (٢) .

لقد قضى الأمر ، وانتهى الجدل ، وسكت الحوار .. وهنا نرى على المسرح عجباً . نرى الشيطان .. هاتف الغواية ، وحادي الغواية .. نراه الساعة يلبس مسوح الكهان ، أومسوح الشيطان ! ويتشيطان على الضعفاء والمستكبرين سواء ، بكلام ربما كان أقسى عليهم من العذاب :

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتُمْ فَأَخْلَفْتُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٣) .

(١) سورة الأعراف : ٢٨ .

(٢) سورة إبراهيم : ٢١ .

(٣) سورة إبراهيم : ٢٢ .

الله ! الله ! أما إن الشيطان حقاً لشيطان ! وإن شخصيته لتبدو هنا على أتمها
كما بدت شخصية الضعفاء وشخصية المستكبرين في هذا الحوار ..

إنه الشيطان الذي وسوس في الصدور ، وأغرى بالعصيان ، وزين الكفر ،
وصدهم عن استماع الدعوة .. هو هو الذي يقول لهم وهو يطعنهم طعنة أليمة
نافذة ، حيث لا يملكون أن يردوها عليه - وقد قضى الأمر - هو الذي يقول الآن ،
وبعد فوات الأوان :

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتَكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ ﴾ (١) .

ثم يخزهم وخزة أخرى بتعيرهم بالاستجابة له ، وليس له عليهم من
سلطان ، سوى أنهم تخلوا عن شخصياتهم ، ونسوا ما بينهم وبين الشيطان من
عداء قديم ، فاستجابوا لدعوته الباطلة وتركوا دعوة الحق من الله :

﴿ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ (٢) !

ثم يؤنبهم ، ويدعوهم لتأنيب أنفسهم . يؤنبهم على أن أطاعوه ! :

﴿ فَلَا تُلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ (٣) !

ثم يخلي بهم ، وينفض يده منهم ، وهو الذي وعدهم من قبل ومناهم ،
ووسوس لهم أن لا غالب لهم ، فأما الساعة فما هو بجليهم إذا صرخوا ، كما أنهم لن
ينجدوه إذا صرخ :

﴿ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي ﴾ (٤) .

وما بيننا من صلة ولا ولاء !

(١) سورة إبراهيم : ٢٢ .

(٢) سورة إبراهيم : ٢٢ .

(٣) سورة إبراهيم : ٢٢ .

(٤) سورة إبراهيم : ٢٢ .

ثم يبرأ من إشراكهم به ويكفر بهذا الاشرار :
﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ ﴾ (١) .

ثم ينهي خطبته الشيطانية بالقاصمة يصبها على أوليائه :
﴿ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٢) .

فيا للشيطان ، وبألمهم من وليهم الذي هتف بهم إلى الغواية فأطاعوه ،
ودعاهم الرسل إلى الله فكذبوهم وجحدوهم (٣) .

وفي موضع آخر يذكر الله تحاصم الضعفاء والسادة المستكبرين فيقول :
﴿ وَإِذْ يَتَحَاوَرُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ
مُعْتَدُونَ عَلَيْنَا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴿٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ
الْعِبَادِ ﴾ (٤) .

وهذه الآيات الكريمة تأتي بعد الإخبار بما كان من استعلاء فرعون من تذييحه
الأطفال ، ومحاولته قتل موسى ، ومحاورته ذلك المؤمن الذي واجه فرعون ودحض
حجته وباطله ، وكيف وقف الشعب موقف التابع الذي ينفذ رغبات الطاغية ،
فيقوم أفراده بالتذبيح والإيذاء والمطاردة ، هؤلاء الذين كانوا في الدنيا أعوانا
للظلمة المجرمين يعلمون في يوم القيامة فداحة الجريمة التي وقعوا فيها ، ويقولون
للسادة أمثال فرعون : ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتَدُونَ عَلَيْنَا نَصِيبًا مِنَ
النَّارِ ﴾ (٥) ، ولكن السادة لا يملكون لأنفسهم شيئا ، ولا يستطيعون نصر

(١) سورة إبراهيم : ٢٢ .

(٢) سورة إبراهيم : ٢٢ .

(٣) في ظلال القرآن : ٢٠٩٥/٤ .

(٤) سورة المؤمن : ٤٧ - ٤٨ .

(٥) سورة المؤمن : ٤٧ .

أنفسهم ، فيقولون : ﴿ إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْحَكَرَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴾ (١) ، وهذا الموقف يدلنا على الجواب الذي يمكننا أن نواجه به المقولة الباطلة التي يرددها بعض الظلمة حيث يقولون لأتباعهم : اتبعوني ، وأنا أتحمّل وزركم إن كان عليكم وزر ، فإن تحملهم مثل أوزار الذين يضلونهم ، لا يمنع العذاب عن الذين اتبعوهم ، ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلنَحْمِلْ خَطِيئَتَكُمْ وَمَاهُمْ بِحَمِلِينَ مِنْ خَطِيئَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلِيَحْمِلَنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ (٢) وقال في موضع آخر محدثا عن خاصمة الضعفاء للمستكبرين : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا الْوَالَا أَنْتُمْ لَكُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا أَنْتُمْ صَدَدْتُمْ عَنْ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِي آعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٣)

فالأتباع والضعفاء يتهمون سادتهم وزعمائهم قائلين لهم : أنتم الذين حلتهم بيننا وبين الإيمان ، فلولاكم لكنا من الذين اتبعوا ما أنزل إلينا من ربنا ولكن المستكبرين يرفضون هذه التهمة ، ويقولون لهم : أنتم المجرمون ، كل ما في الأمر أننا دعوناكم فاستجبتم لنا ، ولم يكن لنا عليكم من سلطان ، فتقول الشعوب المستضعفة الضالة : بل مكرّم بنا في الليل والنهار أضلنا وحرّفنا عن جادة الصواب ، فالمؤامرات والمؤتمرات ، ووسائل الإعلان في مختلف العصور التي تصور

(١) سورة المؤمن : ٤٨ .

(٢) سورة العنكبوت : ١٢ - ١٣ .

(٣) سورة سبأ : ٣١ - ٣٣ .

الحق باطلا ، والباطل حقا ، وما كان يلقيه الزعماء من شبهات ومزاعم باطلة ، كل ذلك أضلنا وجعلنا نكفر بالله ، ونشرك به ، والحق أن الجميع خاطئون ، وهم غير معذورين في ضلالهم وكفرهم .

ويصف الحق هذا التخاصم بين أهل النار عند دخولهم النار فيقول : ﴿ هَذَا وَإِنَّ لِلطَّغْيِينَ لَشَرَّ مَعَابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ . يَصَلَوْنَهَا فَيَنْسِ الْمَهَادُ ﴿٥٦﴾ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾ هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدِمْتُمُوهُ لَنَا فَيَنْسِ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كَمَا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتُخَذُنَّهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَلِكَ لِحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾ (١) .

فهؤلاء الذين كان بعضهم يرحب ببعض في الحياة الدنيا ، ويوقر بعضهم بعضا ، يتحول حالهم في ذلك اليوم فيقول بعضهم لبعض : ﴿ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ ﴾ (٢) . ويتمنى كل فريق على الله أن يزيد من كانوا أحبابه في الدنيا من العذاب والآلام ، إن هذا التخاصم بين أهل النار حق كائن لا شك في ذلك ، كذلك يقول ربنا تبارك وتعالى .

٤ - ويقع الخصام في ذلك اليوم بين الكافر وقرينه الشيطان ، قال تعالى : ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَتِيدٍ ﴿٢٢﴾ الْفَيَا فِي جَهَنَّمَ كُلٌّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مَّريبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخِرًا فَأَلْفَيَا فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْفَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَىٰ

(١) سورة ص : ٥٥ - ٦٤ .

(٢) سورة ص : ٥٩ - ٦٠ .

وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدِيَّ وَمَا أَنَا بِظَالِمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ (١)

٥ - ويبلغ الأمر أشده والمخاصمة ذروتها عندما يخاصم المرء أعضائه ، ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ ﴿٢٨﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالُوا لَجُلُودُهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقْنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٠﴾ . وهذا يكون من الكفار عندما يعاينون العذاب الشديد الذي أعده الله لهم ، فيلجأون إلى التكذيب والإنكار ، ويزعمون أنهم كانوا صالحين ، ويكذبون بشهادة الملائكة والمرسلين والصالحين الذين يشهدون عليهم ، فعند ذلك يختم الله على أفواههم وتنطق أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ، فعند ذلك يقولون لأعضائهم : « بعدا لكنَّ وسحقا ، عنكن كنت أجادل » (٣) .

أخرج مسلم والترمذي وابن مردويه والبيهقي عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله ﷺ : «يلقى العبد ربه ، فيقول الله ؛ ألم أكرمك وأسودك وأزوجك ، وأسخر لك الخيل والإبل ، وأذرك ترأس وتربع فيقول : بلى أي رب ، فيقول : أفضنتك أنك ملاقي ؟ فيقول : لا ، فيقال : إني أنساك كما نسيتني ، ثم يلقي الثاني ، فيقول له مثل ذلك ، ثم يلقي الثالث فيقول له مثل ذلك ، فيقول : آمنت بك وبكتابك وبرسولك ، وصليت وصمت وصدقت ، ويثنى بخير ما استطاع ، فيقول : ألا نبعث شاهداً عليك ، فيفكر في نفسه من الذي يشهد علي ؟ فيختم على فيه ، ويقال لفخذه انطقي ، فتنتطق فخذه وفمه وعظامه بعمله ما كان ،

(١) سورة ق : ٢٣ - ٢٩ .

(٢) سورة فصلت : ١٩ - ٢١ .

(٣) هذا جزء من حديث رواه مسلم وغيره ، انظر تفسير ابن كثير : (١٦٨/٦) .

وذلك ليعذر من نفسه ، وذلك المنافق ، وذلك الذي يسخط عليه» (١) .
 وإن هذا الحوار الذي يجري بين العبد وجوارحه موضع عجب واستغراب ،
 وقد أضحك هذا الموقف الرسول ﷺ ، ففي الحديث الذي يرويه مسلم عن
 أنس بن مالك قال : كنا عند رسول الله ﷺ فضحك ،
 فقال : « هل تدرون ممّ أضحك ؟ قال : قلنا : الله ورسوله أعلم .
 قال : من مخاطبة العبد ربّه . يقول : يا رب ألم تجرني من الظلم ؟
 قال : يقول : بلى .
 قال : فيقول : إني لا أجزى على نفسي إلا شاهدا مني .
 قال : فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا ، وبالكرام الكاتبين شهودا ،
 ثم يحتّم على فيه ، فيقال لأركانه : انطقي ، قال : فتنطق بأعماله .
 قال : ثم يخلى بينه وبين الكلام .
 قال : فيقول : بعدا لكنّ وسحقا . فعنكّن كنت أناضل» (٢) .

٦ - ويخاصم البدن في يوم القيامة الروح .

قال ابن كثير : « وقد روى ابن مندة في كتاب « الروح » عن ابن عباس رضي
 الله عنها أنه قال : يختصم الناس يوم القيامة حتى تختصم الروح مع الجسد ،
 فتقول الروح للجسد : أنت فعلت . ويقول الجسد للروح : أنت أمرت ،
 وأنت سولت .

فيعت الله ملكا يفصل بينهما ، فيقول لهما :

إن مثلكما كمثلي رجل مقعد بصير ، والآخر ضرير دخلا بستانا . فقال المقعد
 للضرير : إني أرى هاهنا ثمارا ، ولكن لا أصل إليها .

(١) رواه مسلم في صحيحه : (٢٢٨٠/٤) ورقمه : ٢٩٦٩ .
 (٢) رواه مسلم في صحيحه : (٢٢٨٠/٤) ، ورقمه : ٢٩٦٩ .

فقال له الضيرير : اركبني فتناولها . فركبه فتناولها . فأيهما المعتدي ؟
فيقولان : كلاهما .

فيقول لها الملك : فإنكما قد حكمتما على أنفسكما . يعني أن الجسد للروح
كالطية ، وهو راكبه ^(١) .

٧ - وفي ذلك الموقف يمقتون أنفسهم ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لَمَقَّتْ اللَّهُ أَكْبَرُ
مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴾ ^(٢) ، كما يمقتون كل الذين
كانوا لهم أنصارا واخلانا في الدنيا ، ويدعون عليهم ، ويطلبون لهم المزيد من
العذاب ﴿ يَوْمَ تَقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ
﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا ﴾ ^(٣) رَبَّنَا آتِنَاهُمْ
ضَعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَاهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ ^(٤) ، ولشدة حنقهم على من أضلهم
يسألون الله أن يريهم الذين أضلوهم ليدوسوهم بأقدامهم ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا
رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ أَضَلُّنَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أقدامِنَا لِيَكُونَا مِنْ
الْأَسْفَلِينَ ﴾ ^(٥) ، وعندما يدخلون النار ترتفع أصواتهم بلعن بعضهم بعضا ،
ثم يتمنى بعضهم لبعض مزيدا من العذاب ﴿ كَلِمًا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا
حَتَّى إِذَا آذَرُكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُحْرِمُهُمْ لِأَوْلَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَعَذِّبْهُمْ عَذَابًا
ضَعْفًا مِنَ النَّارِ ﴾ ^(٥) .

(١) تفسير ابن كثير : (٩٢/٦) .

(٢) سورة المؤمن : ١٠ .

(٣) سورة الأحزاب : ٦٦ - ٦٨ .

(٤) سورة فصلت : ٢٩ .

(٥) سورة الأعراف : ٣٨ .

المبحث الثاني حال عصاة المؤمنين

بعض المؤمنين يكون قد قارف ذنوبا توقعه في أهوال ومشقات وصعاب ،
وسنعرض في هذا المبحث لذكر بعض العصاة وما يصيبهم في ذلك اليوم من
البلاء .

المطلب الأول الذين لا يؤدون الزكاة

من حقوق الله الكبرى الزكاة ، وهي حق المال ، والذين لا يؤدون زكاة
أموالهم يعذبون بهذه الأموال في الموقف العظيم ، وقد أخبرت النصوص أن عذابهم
بها على وجوه .

الأول : أن يمثل لصاحب المال ماله شجاعا أقرع ، له زبيبتان ، فيطوق
عنقه ، ويأخذ بلهزمتي صاحبه ، قائلا له أنا مالك ، أنا كنتك ، ففي صحيح
البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من آتاه الله
مالا فلم يؤد زكاته ، مثل ماله يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان ، يطوقه يوم
القيامة ، ثم يقول : أنا مالك ، أنا كنتك . ثم تلا : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ
بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ

الْقَيْمَةِ ﴿١﴾ ، (٢) .

والشجاع الأقرع : الحية الذكر المتمط شعر رأسه لكثر سمه ، والزبيتان : نقطتان سوداوان فوق عيني الحية .

الثاني : أن يؤق بالمال نفسه الذي منع زكاته ، فإن كان من الذهب والفضة جعل صفائح من نار ، ثم عذب به صاحبه ، وإن كان المال حيوانا . إبلا أو بقرا أو غنما ، أرسل على صاحبه فعذب به ، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٥﴾ .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي فيها حقها ، إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار ، فأحمي عليها في نار جهنم ، فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره ، كلما بردت أعيدت عليه ، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، حتى يقضى بين العباد ، فيرى سبيله ، إما إلى الجنة وإما إلى النار » .

قيل : يا رسول الله ، فالإبل ؟ قال : « ولا صاحب إبل لا يؤدي منها حقها ، ومن حقها حلبها يوم ورتها ، إلا إذا كان يوم القيامة ، بطح لها بقاع قرقر^(٤) ، أو فر ما كانت ، لا يفقد منها فصيلا واحدا ، تطؤه بأخفافها وتعضه بأفواهاها ، كلما مر عليه أولاه ردّ عليه أخرهاها ، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد ، فيرى سبيله إما إلى الجنة ، وإما إلى النار » .

(١) سورة آل عمران : ١٨٠ .

(٢) مشكاة المصابيح : ٥٥٩/١ ، ورقم الحديث : ١٧٧٤ .

(٣) سورة التوبة : ٣٤ - ٣٥ .

(٤) بطح لها بقاع قرقر : بسط لها ومدّها بأرض مستوية .

قيل : يا رسول الله ، فالبقر والغنم ؟ قال : « ولا صاحب بقر ولا غنم لا يؤدي فيها حقها ، إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر ، لا يفقد منها شيئاً ، ليس فيها عقصاء ولا جلهاء ولا عضباء^(١) ، تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها ، كلما مر عليه أو لاهارد عليه أحرأها ، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، حتى يقضي الله بين العباد ، فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار »^(٢)

المطلب الثاني المتكبرون

الكبر جريمة كبرى في حكم الله وشرعه ، والله يبغض أصحابها أشدَّ البغض ، وعندما يعث الله العباد يحشر المتكبرين في صورة مهينة ذليلة ، ففي الحديث الذي يرويه الترمذي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : « يحشر المتكبرون أمثال الذر يوم القيامة ، في صور الرجال ، يغشاهم الذل من كل مكان »^(٣) .

والذر صغار النمل ، وصغار النمل لا يعبا به الناس ، فيطؤونه بأرجلهم وهم لا يشعرون .

وكما يبغض الله المتكبرين يبغض أسماءهم التي كانوا يطلقونها على أنفسهم استكباراً واستعلاءً ، وتصبح هذه الأسماء التي كانوا يفرحون عند سماعها أنكر الأسماء وأخبثها ، وأغبطها على الله .

(١) العقصاء : الملتوية القرون ، والجلهاء : التي لا قرون لها . والعضباء : التي انكسر قرنها الداخل .

(٢) رواه مسلم في صحيحه ، في كتاب الزكاة ، باب اثم مانع الزكاة ، (٦٨٠/٢) ورقمه : ٩٨٧ ، والحديث في الصحاح والسنن عن أكثر من صحابي ، راجع جامع الأصول : ٥٥٤/٤ .

(٣) مشكاة المصابيح : (٦٣٥/٢) ورقمه : ٥١١٢ ، وإسناده حسن كما قال محقق المشكاة .

روى البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « أخنع اسم عند الله يوم القيامة ، رجل تسمى ملك الأملاك » وزاد مسلم في رواية « لا مالك إلا الله عز وجل » .

ورواه مسلم وأحمد عن أبي هريرة بلفظ « أغيظ رجل على الله يوم القيامة ، وأغيظه عليه ، رجل كان يسمى ملك الأملاك ، لا ملك إلا الله » (١) .
قال القاضي عياض : أخنع : معناه أشدُّ الأسماء صغارا ، وقال ابن بطال : وإذا كان الاسم أدل الأسماء ، كان من تسمى به أشدُّ ذلًا (٢) .

المطلب الثالث

ذنوب لا يكلم الله أصحابها ولا يزكيهم

وردت نصوص كثيرة ترهب من ذنوب توعد الله من ارتكبها بأن لا يكلمه في يوم القيامة ولا يزكيه ، وله عذاب اليم .

فمن هؤلاء الذين يكتُمون ما أنزل الله من الكتاب ، وهم الأخبار والرهبان والعلماء الذين يكتُمون ما عندهم من العلم إرضاءً لحاكم ، أو تحقيقاً لمصلحة ، أو طلباً لعرض دنيوي ، ككتمان الأخبار والرهبان ما يعرفونه من كتبهم من صفات الرسول ﷺ ، وإنكارهم لنبوته ، مع أنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم .

وقد قال الله في هؤلاء : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَسْتُرُونَ بِهِ عُظْمًا قَلِيلًا أَوْلَيْكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٧٤) أَوْلَيْكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَى

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٦١٩/٢) ، ورقمه : ٩١٤ .

(٢) فتح الباري : (٥٨٩/١٠) .

وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١﴾ .

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَكْفُرُهُمْ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ ﴾ (٢) . « وذلك لأنه تعالى غضبان عليهم ، لأنهم كتموا وقد علموا ، فاستحقوا الغضب ، فلا ينظر إليهم ، ولا يزيكهم ، أي لا يثنى عليهم ولا يمدحهم ، بل يعذبهم عذابا أليما » (٣) .

وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار » رواه أبو داود والترمذي وحسنه ، وابن ماجه ، وابن حبان في صحيحه ، والبيهقي ، ورواه الحاكم بنحوه . وقال صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه .

وفي رواية لابن ماجه قال : « ما من رجل يحفظ علما فيكتمه إلا أتى يوم القيامة ملجوما بلجام من نار » (٤) .

ومن الذين يغضب الله عليهم يوم القيامة ، فلا يكلمهم ولا يزيكهم ، ولهم عذاب أليم الذين ينقضون ما عاهدوا الله عليه ويشترون بأيمانهم ثمنا قليلا ، فيحلفون الأيمان الكاذبة تحميها لكسب دنيوي تافه ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتُرُونَ عَهْدَ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٥) .

وقد ساق ابن كثير أحاديث كثيرة تتعلق بهذه الآية :

منها الحديث الذي رواه مسلم وأهل السنن وأحمد عن أبي ذر قال : قال

(١) سورة البقرة : ١٧٤ - ١٧٥ .

(٢) سورة البقرة : ١٧٤ .

(٣) تفسير ابن كثير : (١/٣٦٣) .

(٤) الترغيب والترهيب للمحافظ المنذري : (١/٩٧) .

(٥) سورة آل عمران : ٧٧ .

رسول الله ﷺ : « ثلاثة لا يكلمهم الله ، ولا ينظر إليهم يوم القيامة ، ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم » .

قلت : يا رسول الله ، من هم ؟ خسروا وخابوا .

قال : وأعاده رسول الله ثلاث مرات .

قال : « المسبل ، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب ، والمنان » .

ومنها ما رواه البخاري ومسلم عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « من حلف على يمين وهو فيها فاجر ليقطع بها مال امرئ مسلم ، لقي الله - عز وجل - وهو عليه غضبان » .

ومنها ما رواه البخاري عن عبد الله بن أبي أوفى أن رجلا أقام سلعة له في السوق ، فحلف بالله لقد أعطي فيها ما لم يعطه ، ليقع فيها رجلا من المسلمين ، فنزلت هذه الآية : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتُرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ (١) .

ومنها ما رواه أحمد وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ، ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم : رجل منع ابن السبيل فضل ماء عنده ، ورجل حلف على سلعته بعد العصر ، يعني كاذبا ، ورجل بايع إماما ، فإن أعطاه وفي له ، وإن لم يعطه لم يف له » وقال الترمذي : حديث حسن صحيح (٢) .

وروى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم : رجل حلف على سلعته : لقد أعطي بها أكثر مما أعطى وهو كاذب ، ورجل حلف على يمين كاذبة بعد العصر ليقطع بها مال

(١) سورة آل عمران : ٧٧ .

(٢) انظر هذه الأحاديث في تفسير ابن كثير : (٦٠/٢) .

امرئ مسلم ، ورجل منع فضل ماء ، فيقول الله يوم القيامة : اليوم أمنعتك فضلي ، كما منعت فضل ما لم تعمل يداك «^(١) .

ومن الذنوب التي توعده الله عليها بعدم تكليم صاحبها ، وعدم نظره إليه ، وترك تزكيتها ، غير ما تقدم ، الشيخ الزاني ، والملك الكذاب ، والعائل (أي الفقير) المستكبر ، والعاق لوالديه ، والمرأة المتشبهة بالرجال ، والديوث ، ومن أتى إمرأته في دبرها ، ومن جر ثوبه خيلاء .

ففي صحيح مسلم وسنن النسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ، ولا يزيكهم ، ولا ينظر إليهم ، وهم عذاب أليم : شيخ زان ، وملك كذاب ، وعائل مستكبر »^(٢) .

وفي مسند أحمد ، وسنن النسائي ، ومستدرک الحاكم عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة : العاق لوالديه ، والمرأة المترجلة المتشبهة بالرجال ، والديوث »^(٣) .
وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الذي يأتي إمرأته في دبرها لا ينظر الله إليه » رواه في « شرح السنة »^(٤) .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ : « لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جر ثوبه بطرا »^(٥) .

(١) صحيح البخاري ، كتاب التوحيد . باب قول الله : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة ﴾ فتح الباري : (٤١٩/١٣) .

(٢) صحيح الجامع الصغير : (٧٣/٣) ، ورقمه : ٣٠٦٤ .

(٣) صحيح الجامع الصغير : (٧٤/٣) ، ورقمه : ٣٠٦٦ .

(٤) مشكاة المصابيح (١٨٤/٢) ورقم الحديث : (٣١٩٤) ، وقال فيه محقق المشكاة : ورواه النسائي في « الكبرى » ، وهو حديث صحيح .

(٥) مشكاة المصابيح : (٤٧٢/٢) ورقمه : ٤٣١١ .

وفيهما أيضا عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال : « من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة » (١) .

وعن ابن عمر عن النبي ﷺ قال : « الإسبال في الإزار والقميص والعمامة ، من جر منها شيئا تخيلا لم ينظر الله إليه يوم القيامة » رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه (٢) .

المطلب الرابع الأثرىاء المتعمون

الذين يركنون إلى الدنيا ، ويطمثون إليها ، ويكثرون من التمتع بنعيمها ، يُضَيَّقُ عليهم في يوم القيامة ، فقد أخبر الرسول ﷺ أن الذي يكثر شعبه في الدنيا ، يطول جوعه يوم القيامة ، ففي سنن الترمذي وسنن ابن ماجه ومستدرک الحاكم أن الرسول ﷺ قال لأحد أصحابه : « كف عنا جشاءك ، فإن أكثرهم شعبا في الدنيا أطولهم جوعا يوم القيامة » (٣) . كما أخبر أن أصحاب المال الكثير والمتاع الدنيوي الواسع يكونون أقل الناس أجرا في يوم القيامة ، مالم يكونوا قد بذلوا أموالهم في سبل الخيرات ، ففي الصحيحين عن أبي ذر قال : « إن الكثيرين هم المقلون يوم القيامة ، إلا من أعطاه الله تعالى خيرا ، فنفع فيه بيمينه وشماله ، وبين يديه وورائه ، وعمل فيه خيرا » (٤) .

(١) مشكاة المصابيح : (٤٧٢/٢) ، ورقمه : ٤٣١٢ .

(٢) وإسناده صحيح كما يقول محقق مشكاة المصابيح : (٤٧٤/٢) ، ورقم الحديث : (٤٣٣٢) .

(٣) ساق الشيخ ناصر الدين الألباني طرق الحديث في سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ورقم الحديث :

(٣٤٣) .

(٤) صحيح الجامع الصغير : (١٦٥/٢) ، ورقمه : (١٩٥٠) .

وقلة الحسنات تؤخرهم ، وتجعل الآخرين يتقدمونهم ، بعدما كانوا في الدنيا مقدمين ، ففي سنن ابن ماجة عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : « الأكثرون هم الأسفلون يوم القيامة ، إلا من قال بالمال هكذا ، وهكذا ، وكسبه طيب »^(١) .

وأخبرنا الرسول ﷺ أن الذين أثقلوا أنفسهم بالنعيم الدنيوي ، والغنى والثراء لا يستطيعون أن يتجاوزوا في يوم القيامة العقبات والأهوال ، ففي شعب الإيمان عن أم الدرداء قالت : قلت لأبي الدرداء : مالك لا تطلب كما يطلب فلان ؟ فقال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أمامكم عقبة كؤودا لا يجوزها المثقلون »^(٢) .

المطلب الخامس فضيحة الغادر

عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة يرفع لكل غادر لواء ، فقيل : هذه غدرة فلان ابن فلان » رواه مسلم^(٣) .
والغادر : الذي يواعد على أمر ، ولا يفِي به ، واللواء : الراية العظيمة ، لا يمسكها إلا صاحب جيش الحرب ، أو صاحب دعوة الجيش ، ويكون الناس تبعاً له^(٤) . فالغادر ترفع له راية تسجل عليها غدرته ، فيفضح بذلك يوم القيامة ،

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٣٦٤/٤) ، ورقمه : ١٧٦٦ .

(٢) مشكاة المصابيح : (٦٠٧/٢) ورقمه : (٥٢٠٤) . وعزاه في صحيح الجامع إلى الحاكم أيضا انظر : صحيح الجامع (١٧٨/٢) ورقمه : ١٩٩٧ .

(٣) صحيح مسلم ، (١٣٥٩/٣) ورقمه : ١٧٣٥ ، والحديث رواه البخاري وأبو داود والترمذي وغيرهم .

(٤) شرح النووي على مسلم : (٤٢/١١) .

وتجعل هذه الراية عند مؤخرته ، ففي صحيح مسلم عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « لكل غادر لواء عند استه يوم القيامة »^(١) .

وكلما كانت الغدرة كبيرة عظيمة كلما ارتفعت الراية التي يفضح بها في يوم الموقف العظيم ، ففي صحيح مسلم عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « لكل غادر لواء يوم القيامة يرفع له بقدر غدره ، ألا ولا غادر أعظم غدرا من أمير عامة »^(٢) ، وأمير العامة هو الحاكم أو الخليفة ، وكانت غدرته كذلك لأن ضرره يتعدى إلى خلق كثير ، ولأن الحاكم أو الوالي يملك القوة والسلطان فلا حاجة به إلى الغدر .

وقد جعل الله العقاب بهذا اللون من العقوبة على طريقة ما يعهده البشر ويفهمونه ألا ترى قول شاعرهم :

أسمي ويحك هل سمعت بغدرة رفع اللواء لنا بها في المجمع
فكانت العرب ترفع للغادر لواء في المحافل ومواسم الحج ، وكذلك يطاف بالجانبي مع جنايته^(٣) .

المطلب السادس

الغلول

الغلول هو الأخذ من الغنيمة على وجه الخفية ، وهو ذنب يخفي تحته شيء من الطمع والأثرة ، وقد توعد الله تبارك وتعالى الغال بفضحه يوم القيامة على رؤوس الأشهاد ، وذلك لتحميله ما غلّه في ذلك اليوم ، ﴿ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ

(١) صحيح مسلم : (١٣٦١/٣) ، ورقم الحديث : ١٧٣٨ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) التذكرة للقرطبي : ٢٩٧ .

يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفِّي كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١﴾ .

يقول القرطبي في تفسير هذه الآية : « أي يأتي به حاملا له على ظهره وعلى رقبته ، معذبا بحمله وثقله ، ومرعوبا بصوته ، وموبخا بإظهار خيانته على رؤوس الأَشْهَادِ » (٢) .

ومن الغلول غلول الحكام والموظفين والعمال والولاة من الأموال العامة ، وقد وضع الرسول ﷺ كيف يحمل الغالون يوم القيامة ما غلوه في أكثر من حديث ، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قام فينا رسول الله ﷺ ذات يوم ، فذكر الغلول فعظمه ، وعظم أمره ، ثم قال : « لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء ، يقول : يا رسول الله ، أغثنى ، فأقول : لا أملك لك شيئا ، قد أبلغتكَ .

لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرس له حمحمه ، فيقول : يا رسول الله ، أغثنى ، فأقول : لا أملك لك شيئا ، قد أبلغتكَ .

لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته شاه لها ثغاء ، يقول : يا رسول الله ، أغثنى ، فأقول : لا أملك لك شيئا قد أبلغتكَ .

لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته نفس لها صياح ، فيقول يا رسول الله ، أغثنى ، فأقول : لا أملك لك شيئا ، قد أبلغتكَ .

لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رأسه رقاغ تخفق ، فيقول : يا رسول الله ، أغثنى ، فأقول : لا أملك لك شيئا ، قد أبلغتكَ .

لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت (٣) ، فيقول : يا رسول

(١) سورة آل عمران : ١٦١

(٢) تفسير القرطبي : (٢٥٦/٤) .

(٣) الصامت : الذهب والفضة .

الله ، أغثنى ، فأقول : لا أملك لك شيئا قد أبلغتك « متفق عليه ، وهذا لفظ مسلم ، وهو أتم^(١) .

وأخرج الطبراني في « معجمه الكبير » ، والبيهقي في « السنن » ، والحميدي في مسنده أن الرسول ﷺ استعمل عبادة بن الصامت على الصدقة ، ثم قال له : « اتق الله يا أبا الوليد أن تأتي يوم القيامة ببيعير تحمله على رقبتك ، له رغاء ، أو بقرة لها خوار ، أو شاة لها ثؤاج »^(٢) .

وقد ساق ابن كثير في تفسيره الأحاديث المرهبة من الغلول ، ومنها أحاديث غلول العمال من الصدقات ، وساق حديث أبي حميد الساعدي قال : « استعمل رسول الله ﷺ رجلا من الأزدي يقال له ابن اللبية على الصدقة ، فجاء فقال : هذا لكم وهذا أهدي لي .

فقام رسول الله ﷺ على المنبر ، فقال : « ما بال العامل نبعثه على عمل ، فيقول : هذا لكم ، وهذا لي ، أفلا جلس في بيت أبيه وأمه ، فينظر أيهدى إليه أم لا ؟ والذي نفس محمد بيده لا يأتي أحدكم منها بشيء إلا جاء به يوم القيامة على رقبته ، إن كان بيعيرا له رغاء ، أو بقرة لها خوار ، أو شاة تيعر » رواه البخاري ومسلم^(٣) .

المطلب السابع غاصب الأرض

عن عبدالله بن عمر رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ « من أخذ من الأرض شيئا بغير حقه خسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين »^(٤) .

(١) مشكاة المصابيح : (٤٠١/٢) . ورقم الحديث : ٣٩٩٥ .

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٥٣٧/٢) ، ورقمه : (٨٥٧) . والحديث صحيح .

(٣) تفسير ابن كثير : (١٤٥/٢) .

(٤) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، باب إثم من ظلم شيئا من الأرض ، فتح الباري : (١٠٣/٥) .

المطلب الثامن ذو الوجهين

شر الناس يوم القيامة المتلون الذي لا يثبت على حال واحدة وموقف واحد ،
فيأتي هؤلاء بوجه ، وهؤلاء بوجه ، روى البخاري ومسلم في صحيحهما عن أبي
هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « تجدون شر الناس يوم القيامة ذا
الوجهين ، الذي يأتي هؤلاء بوجه ، وهؤلاء بوجه » (١) .

وورد في بعض الأحاديث أن هذا الصنف من الناس يكون له لسان من نار
يوم القيامة ، فقد أخرج أبو داود واللفظ له ، والبخاري في الأدب المفرد ،
والدارمي ، وأبو يعلى وغيرهم عن عمار بن ياسر رضي الله عنه قال : قال رسول
الله ﷺ : « من كان له وجهان في الدنيا كان له لسان من نار يوم القيامة » (٢) .

المطلب التاسع الحاكم الذي يحتجب عن رعيته

روى أبو داود وابن ماجة والحاكم بإسناد صحيح عن أبي مريم الأزدي قال :
قال رسول الله ﷺ : « من ولي من أمور المسلمين شيئاً ، فاحتجب دون خلتهم ،
وحاجتهم ، وفقرهم ، وفاقتهم ، احتجب الله عنه يوم القيامة ، دون خلته ،
وحاجته ، وفاقته ، وفقره » (٣) .

(١) مشكاة المصابيح : (٥٧٨/٢) ، ورقمه : ٤٨٢٠ .

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٥٨٤/٢) ، ورقمه : ٨٩٢ .

(٣) صحيح الجامع الصغير : (٣٦٨/٥) ، ورقم الحديث : ٦٤٧١ .

المطلب العاشر الذي يسأل وله ما يغنيه

يبعث الذي كان يسأل الناس وله ما يغنيه ، وفي وجهه خموش أو كدوش ،
فقد أخرج أبو داود والنسائي والترمذي والدارمي وغيرهم عن عبدالله بن مسعود
قال : قال رسول الله ﷺ : « من سأل وله ما يغنيه ، جاءت مسأله يوم القيامة
خدوشا أو خموشا أو كدوحا في وجهه .

قيل : يا رسول الله ، وما يغنيه ؟

قال : خمسون درهما ، أو قيمتها من الذهب »^(١) .

وفي مسند الإمام أحمد عن عمران بن حصين قال : قال رسول الله ﷺ :
« مسألة الغني شين في وجهه يوم القيامة »^(٢) .

المطلب الحادي عشر البصاق تجاه القبلة

جهة القبلة محترمة مقدسة ، ولذا فقد جاءت الأحاديث ناهية عن استقبال
القبلة واستدبارها حال البول والغائط .

ومما نهى عنه الرسول ﷺ البصاق تجاه القبلة ، وأخبرنا أن الذي يتنخم تجاه
القبلة يأتي يوم القيامة ونخامته في وجهه ، فقد روى البزار في مسنده ، وابن حبان
وابن خزيمة في صحيحهما عن ابن عمر قال : « تبعت النخامة في القبلة يوم

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة : ورقم الحديث : (٤٩٩) .

(٢) صحيح الجامع الصغير : (٢٠٨/٥) ورقمه : ٥٧٤٧ ، وقال المحقق فيه : صحيح .

القيامة ، وهي في وجه صاحبها» (١) .

وروى أبو داود في « سننه » وابن حبان في « صحيحه » عن حذيفة بن اليمان عن رسول الله ﷺ قال : « من تفل تجاه القبلة جاء يوم القيامة وتفله بين عينيه » ، وإسناده صحيح (٢) .

المطلب الثاني عشر من كذب في حلمه

يعاقب الذي يكذب في حلمه يوم القيامة بأن يكلف بأن يعقد بين شعيرتين ، والذي يستمع إلى قوم وهم كارهون يعاقب بأن يصب الأذنك في أذنيه يوم القيامة ، والأذنك الرصاص .

روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « من تحلم بحلم لم يره كلف أن يعقد بين شعيرتين ، ولن يفعل ، ومن استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون ، أو يفرون منه ، صب في أذنه الأذنك يوم القيامة » (٣) .

(١) صحيح الجامع الصغير : (٣٣/٣) ، ورقمه : ٢٩٠٧ ، وقال الشيخ ناصر فيه : صحيح ، وانظر كلام الشيخ ناصر الدين الألباني على الحديث في « سلسلة الأحاديث الصحيحة » حديث رقم : ٢٢٣ .

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ورقم الحديث : ٢٢٢ .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب تعبير الرؤيا ، باب من كذب في حلمه ، فتح الباري : (٤٢٧/١٢) .

المبحث الثالث حَالُ الْأَتْقِيَاءِ

المطلب الأول

يفزع الناس يوم القيامة ولا يفزعون

صنف من عباد الله لا يفزعون عندما يفزع الناس ، ولا يجزون عندما يجزون الناس ، أولئك هم أولياء الرحمن الذين آمنوا بالله ، وعملوا بطاعة الله استعداداً لذلك اليوم فيؤمنهم الله في ذلك اليوم ، وعندما يبعثون من القبور تستقبلهم ملائكة الرحمن تهديء من روعهم ، وتطمئن قلوبهم ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٦﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّهِمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٨﴾ (١) ، والفزع الأكبر ، هو ما يصيب العباد عندم يبعثون من القبور ، ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٢٠﴾ .

ففي ذلك اليوم ينادي الرحمن أولياء الرحمن مطمئناً لهم ﴿ يَاعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿١٦﴾ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ وقال في موضع آخر : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٦﴾

(١) سورة الأنبياء : ١٠١ .

(٢) سورة إبراهيم : ٤٢ .

(٣) سورة الزخرف : ٦٨ - ٦٩ .

الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٦﴾ لَّهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴿١﴾ .

والسر في هذا الأمن الذي يشمل الله به عبادة الأتقياء ، أن قلوبهم كانت في الدنيا عامرة بمخافة الله ، فأقاموا ليلهم ، وأظمئوا نهارهم ، واستعدوا ليوم الوقوف بين يدي الله ، فقد حكى عنهم ربهم أنهم كانوا يقولون : ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَطَطًا﴾ (٢) ، ومن كان حاله كذلك فإن الله يقيه من شر ذلك اليوم ويؤمنه ، ﴿فَوْقَهُمْ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّهْمُ نَصْرَةً وَسُرُورًا﴾ (٣) وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿٣﴾ .

وفي الحديث الذي يرويه أبو نعيم في الحلية عن شداد بن أوس أن رسول الله ﷺ قال : « قال الله عز وجل : وعزتي وجلالي ، لا أجمع لعبدي أمينين ولا خوفين ، إن هو أميني في الدنيا أخفته يوم أجمع فيه عبادي ، وإن هو خافني في الدنيا أمنتته يوم أجمع فيه عبادي » (٤) .

وكلما كان العبد أكثر إخلاصا لربه تبارك وتعالى كان أكثر أمنا في يوم القيامة ، فالموحدون الذين لم يلبسوا إيمانهم بشيء من الشرك ، لهم الأمن التام يوم القيامة ، يدل ذلك على هذا جواب إبراهيم لقومه عندما خوفوه بأصنامهم ، فأجابهم قائلا : ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٥﴾ .

(١) سورة يونس : ٦٢ - ٦٤ .

(٢) سورة الدهر : ١٠ .

(٣) سورة الدهر : ١١ - ١٢ .

(٤) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٣٧٧/٢) ، ورقمه : ٧٤٢ ، وإسناده حسن .

(٥) سورة الأنعام : ٨١ - ٨٢ .

المطلب الثاني الذين يظلمهم الله في ظله

عندما يكون الناس في الموقف العظيم تحت وهج الشمس القاسي ، يذوقون من البلاء شيئاً تنوء بتحملة الجبال الشم الراسيات - يكون فريق من الأخيار هائنين في ظل عرش الرحمن ، لا يعانون الكربات التي يقاسي منها الآخرون .
وهؤلاء هم أصحاب الهمم العالية ، والعزائم الصادقة ، الذي تمثلت فيه عقيدة الإسلام ، وقيمه الفاضلة ، أو قاموا بأعمال جليلة ، لها في مقياس الإسلام وزن كبير .

فمن هؤلاء ؟ الإمام العادل ، الذي يملك القوة والسلطان ، ولكنه لم يطغ ، وأقام العدل بين العباد وفق سلطان الشرع الإلهي .

ومنهم الشاب الذي نشأ في عبادة ربه ، وألجم نفسه بلجام التقوى ، وردع النفس والهوى ، فعاش عمره طاهراً نقياً .

ومنهم الذين يعمرن مساجد الله ، يجدون في رحابها الأُنس بالله ومناجاته ، فلا يكادون يفارقونها حتى يحنوا إلى رحابها .

ومن هؤلاء المتحابون في الله تبارك وتعالى ، تجمعهم رابطة الأخوة فيه ، ويجتمعون على البر والتقوى والصلاح ، ويتفرقون على عمل صالح .

ومنهم الذين تعرض لهم فتنة النساء ، فيحول خوف الله بينهم وبين الوقوع في الفاحشة .

ومنهم المنفق الذي يخلص دينه لله ، فيخفي الصدقة حتى عن نفسه .

ومنهم الذي تملأ مخافة الله قلبه ، فتفيض عيناه من أجل ذلك وهو وحيد ليس معه أحد .

روى البخاري ومسلم في صحيحهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « سبعة يظلهم في ظله يوم لا ظل إلا ظله : الإمام العادل ، وشاب نشأ في عبادة ربه ، ورجل قلبه معلق في المساجد ، ورجلان تحابا في الله اجتماعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله ، ورجل تصدق أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه » (١) .

وقد جاءت نصوص كثيرة تدل على إظلال الله للمتحابين فيه في ظل العرش في ذلك اليوم منها حديث أبي هريرة عند مسلم ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله يقول يوم القيامة : أين المتحابون بجلالي ، اليوم أظلمهم في ظلي ، يوم لا ظل إلا ظلي » (٢) .

وفي معجم الطبراني الكبير ومسنند أحمد ، وصحيح ابن حبان ، ومستدرک الحاكم ، عن معاذ قال : قال رسول الله ﷺ : « إن المتحابين في الله في ظل العرش » (٣) . وفي كتاب « الاخوان » لابن أبي الدنيا بإسناد صحيح عن عبادة بن الصامت ، عن رسول الله ﷺ قال : قال الله تعالى : « حقت محبتي على المتحابين ، أظلمهم في ظل العرش يوم لا ظل إلا ظلي » (٤) .

(١) صحيح البخاري ، كتاب الأذان ، باب من جلس في المسجد ، فتح الباري : (١٤٣/٢) . ورواه

مسلم : (٧١٥/٢) ، ورقمه : (١٠٣) والسياق للبخاري .

(٢) رواه مسلم : (١٩٨٨/٤) ، ورقمه : ٢٥٦٦ .

(٣) صحيح الجامع الصغير : (١٦١/٢) ورقمه : ١٩٣٣ .

(٤) صحيح الجامع الصغير : (١١٦/٤) .

والإظلال في ظل العرش ليس مقصورا على السبعة المذكورين في الحديث ،
فقد جاءت نصوص كثيرة تدل على أن الله يظل غيرهم ، وقد جمع ابن حجر
العسقلاني الخصال التي يظل الله أصحابها في كتاب سماه : « معرفة الخصال
الموصللة إلى الظلال »^(١) .

ومن هذه الخصال إنظار المعسر أو الوضع عنه ، ففي صحيح مسلم ومسنده
أحمد عن أبي اليسر عن رسول الله ﷺ قال : « من أنظر معسرا أو وضع عنه ، أظله
الله في ظله »^(٢) .

وفي مسند أحمد وسنن الدارمي بإسناد صحيح عن أبي قتادة عن رسول الله
ﷺ قال : « من نفس عن غريمه أو محاه عنه ، كان في ظل العرش يوم القيامة »^(٣) .

المطلب الثالث

الذين يسعون في حاجة إخوانهم ويسدون خللتهم

من أعظم ما يفرج كربات العبد في يوم القيامة سعى العبد في الدنيا في فك
كربات المكروبين ، ومساعدة المحتاجين ، والتيسير على المعسرين ، وإقالة عثرات
الزالين ، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله
ﷺ : « من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا ، نفس الله عنه كربة من كرب
يوم القيامة ، ومن يسر على معسر ، يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ، ومن ستر
مسلم ستره الله في الدنيا والآخرة ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون
أخيه »^(٤) .

(١) فتح الباري : (١٤٤//٢) .

(٢) صحيح مسلم : (٢٣٠٢/٤) ، ورقمه : ٣٠٠٦ .

(٣) صحيح الجامع الصغير : (٣٦٤/٤) ، ورقمه : ١٤٥٢ .

(٤) مشكاة المصابيح : (٧١/١) ورقم الحديث : ٢٠٤ .

وروى البخاري في صحيحه عن عبدالله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال :
« المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يسلمه ، ومن كان في حاجة أخيه ، كان الله في
حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة ، فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة ،
ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة » (١) .

وروى الدينوري في « المجالسة » ، والبيهقي في « الشعب » والضياء في
« المختارة » عن أنس أن النبي ﷺ قال : « من نصر أخاه بظهر الغيب نصره الله في
الدنيا والآخرة » (٢) .

المطلب الرابع الذين يسرون على المعسرين

روى البخاري ومسلم في صحيحهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي
ﷺ قال : « كان رجل يداين الناس ، فكان يقول لفتاه : إذا أتيت معسرا تجاوز
عنه ، لعل الله أن يتجاوز عنا ، قال : فلقي الله فتجاوز عنه » (٣) .

وروى النسائي وابن حبان والحاكم بإسناد صحيح عن أبي هريرة أن النبي
ﷺ قال : « إن رجلا لم يعمل خيرا قط ، وكان يداين الناس ، فيقول لرسوله :
خذ ما تيسر ، واترك ما عسر ، وتجاوز ، لعل الله يتجاوز عنا .
فلما هلك قال : هل عملت خيرا قط ؟ قال : لا ، إلا أنه كان لي غلام ،
وكنت أداين الناس ، فإذا بعثته يتقاضى قلت له : خذ ما تيسر ، واترك ما عسر ،
وتجاوز ، لعل الله أن يتجاوز عنا . قال الله : قد تجاوزت عنك » (٤) .

-
- (١) صحيح البخاري ، كتاب المظالم ، باب لا يظلم المسلم المسلم ، فتح الباري : (٩٧/٥) .
(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٢١٨/٣) ورقم الحديث : ١٢١٧ .
(٣) مشكاة المصابيح : (١٠٨/٢) ، ورقم الحديث : (٢٨٩٩) .
(٤) صحيح الجامع الصغير : (٢٠٤/٢) ، ورقم الحديث : ٢٠٧٣ .

وفي مستدرك الحاكم بإسناد صحيح عن حذيفة ، وعقبة بن عامر ، وأبي مسعود ، عن رسول الله ﷺ قال : « أتى الله عز وجل بعبد من عباده آتاه الله مالا ، فقال له : ماذا عملت في الدنيا ؟ فقال : ما عملت من شيء يا رب ، إلا أنك آتيتني مالا ، فكننت أبايع الناس ، وكان من خلقي أن أيسر على الموسر وأنظر المعسر . قال الله تعالى : أنا أحق بذلك منك ، تجاوزوا عن عبدي » (١) .

المطلب الخامس

الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولّوا

العادلون في يوم القيامة في مقام رفيع ، يجلسون على منابر من نور عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين ، ففي صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « إن المقسطين عند الله على منابر من نور ، عن يمين الرحمن عز وجل ، وكلتا يديه يمين ، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولّوا » (٢) .

المطلب السادس

الشهداء والمرابطون

إذا فرغ الناس في يوم القيامة فإن الشهيد لا يفزع ، ففي سنن الترمذي وابن ماجه عن المقدم بن معدى كرب قال : قال رسول الله ﷺ : « للشهيد عند الله ست خصال : يغفر له في أول دفعة ، ويرى مقعده من الجنة ، ويمار من عذاب القبر ، ويأمن من الفزع الأكبر ، ويوضع على رأسه تاج الوقار ، الياقوتة منه خير

(١) صحيح الجامع الصغير : (٩٢/١) ، ورقم الحديث : ١٢٤ .

(٢) صحيح مسلم : (١٤٥٨/٣) ، ورقم الحديث : ١٨٢٧ .

من الدنيا وما فيها ، ويزوج ثنتين وسبعين زوجة من الحور العين ، ويشفع في سبعين من أقربائه» (١) .

والشاهد في الحديث أن الشهيد يأمن من الفزع الأكبر ، وهو فزع يوم القيامة . ومثل الشهيد المرابط في سبيل الله ، فإنه إذا مات وهو مرابط آمنه الله من الفزع الأكبر ، فقد روى الطبراني بإسناد صحيح عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ ، قال : « رباط يوم خير من صيام دهر ، ومن مات مرابطاً في سبيل الله آمن من الفزع الأكبر ، وغدى عليه برزقه وريح من الجنة ، ويجري عليه أجر المرابط حتى يبعثه الله » (٢) .

ومن إكرام الله للشهيد يوم القيامة أن الله يبعثه وجرحه يتفجر دماً اللون لون الدم ، والريح ريح المسك ، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « والذي نفسي بيده ، لا يكلم أحد في سبيل الله ، والله أعلم بمن يكلم في سبيله ، إلا جاء يوم القيامة اللون لون الدم ، والريح ريح المسك » (٣) .

وروى الترمذي والنسائي وأبو داود بإسناد صحيح عن معاذ بن جبل أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « من قاتل في سبيل الله فواق (٤) ناقة ، فقد وجبت له الجنة ، ومن جرح جرحاً في سبيل الله ، أو نكب نكبة (٥) ، فإنها تحيي يوم القيامة

(١) مشكاة المصابيح : (٣٥٨/٢) ، ورقم الحديث : ٣٨٣٤ ، وقال فيه محقق المشكاة : إسناده صحيح .

(٢) صحيح الجامع الصغير : (١٧١/٣) ، ورقم الحديث : ٣٤٧٣ .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب الجهاد ، باب من يجرح في سبيل الله ، فتح الباري : (٢٠/٦) .

(٤) الفواق : ما بين الحلبتين .

(٥) أي أصيب بنكبة ، أي حادثة .

كأغرر ما كانت ، لونها الزعفران ، وريحها المسك» (١) .

قال ابن حجر : « قال العلماء : الحكمة في بعثه كذلك أن يكون معه شاهد بفضيلته ببذله نفسه في طاعة الله تعالى » (٢) .

المطلب السابع الكاظمون الغيظ

كثيرة هي المواقف العصيبة التي يصيب العبد فيها الأذى ، وقد يكون مصدره قريب أو صديق أو مُحسَن إليه ، ولا شك أن الأذى المسموع أو المرئي أو المحسوس الذي يصيبنا يسبب لنا ألما في أعماقنا ، فتجيش نفوسنا بأنواع الانفعالات التي تدعونا إلى المواجهة الحادة ، وضبط النفس في مثل هذه الأحوال لا يملكه إلا أفاض الرجال .

إن الإسلام يعدُّ كظم الغيظ خلقا إسلاميا راقيا يستحق صاحبه التكريم ، فالجنة التي عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، وكظم الغيظ في مقدمة صفات المتقين ، ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٣٣) الَّذِينَ يَنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿ (٣) .

وفي يوم القيامة يدعورب العزة من كظم غيظه على رؤوس الخلائق ، ثم يخيره في أي الحور العين شاء ، روى الترمذي وأبو داود عن سهل بن معاذ بن جبل

(١) مشكاة المصابيح : (٣٥٥/٢) ، ورقم الحديث : ٣٨٢٥ .

(٢) فتح الباري : (٢٠/٦) .

(٣) سورة آل عمران : ١٣٣ - ١٣٤ .

عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « من كظم غيظا ، وهو يقدر أن ينفذه دعاه الله على رؤوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيره في أي الحور العين شاء » (١) .

المطلب الثامن عتق الرقاب المسلمة

من الأعمال الكريمة التي يتمكن صاحبها من اقتحام العقبات الكأداء في يوم القيامة ، عتق الرقاب قال تعالى : ﴿ فَلَا أَقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴾ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ .

وقد ساق ابن كثير في تفسير هذه السورة النصوص الحديثية التي توضح هذه الآيات قال الإمام أحمد : حدثنا علي بن إبراهيم ، حدثنا عبدالله يعني ابن سعيد بن أبي هند ، عن اسماعيل بن أبي حكيم مولى آل الزبير ، عن سعيد بن مرجانه ، أنه سمع أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : « من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل إرب - أي عضو - منها إربا منه من النار حتى أنه ليعتق باليد اليد وبالرجل الرجل وبالفرج الفرج » .

فقال علي بن الحسين : أنت سمعت هذا من أبي هريرة ؟ فقال سعيد : نعم . فقال علي بن الحسين لغلام له أفره غلمانته : ادع مطرفاً ، فلما قام بين يديه قال : اذهب فأنت حر لوجه الله ، وقد رواه البخاري ، ومسلم ، والترمذي ، والنسائي ، من طرق عن سعيد بن مرجانه به وعند مسلم أن هذا الغلام الذي

(١) مشكاة المصابيح (٦٣١/٢) ورقمه ٥٠٨٨ ، وحسن الشيخ ناصر إسناده في صحيح الجامع (٣٥٣//٥) . ورقم الحديث فيه : ٦٣٩٨ ، عزاه إلى أحمد والطبراني ، وانظر رقم : ٦٣٩٤ في صحيح الجامع .

(٢) سورة البلد : ١١ - ١٣ .

أعتقه علي بن الحسين زين العابدين كان قد أعطي فيه عشرة آلاف درهم .

وقال قتادة عن سالم بن أبي الجعد ، عن معدان بن أبي طلحة ، عن أبي نجيج قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أيما مسلم أعتق رجلاً مسلماً ، فإن الله جاعل وفاء كل عظم من عظامه عظماً من عظام محرره من النار ، وأيما امرأة مسلمة أعتقت امرأة مسلمة فإن الله جاعل وفاء كل عظم من عظامها عظماً من عظامها من النار » رواه ابن جرير ، هكذا ، وأبو نجيج هذا هو عمرو بن عبسة السلمي رضي الله عنه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حيوة بن شريح ، حدثنا بقرية ، حدثني بجير بن سعد عن خالد بن معدان عن كثير بن مرة عن عمرو بن عبسة أنه حدثهم أن النبي ﷺ قال : « من بنى مسجداً ليذكر الله فيه يبني الله له بيتاً في الجنة . ومن أعتق نفساً مسلمة كانت فديته من جهنم ، ومن شاب شبية في الإسلام كانت له نوراً يوم القيامة » .

وقال أحمد : حدثنا الحكم بن نافع ، حدثنا جرير عن سليم بن عامر أن شرحبيل بن السمط قال لعمرو بن عبسة : حدثنا حديثاً ليس فيه تزويد ولا نسيان . قال عمرو : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من أعتق رقبة مسلمة كانت فكاكه من النار عضواً بعضو ، ومن شاب شبية في سبيل الله كانت له نوراً يوم القيامة ، ومن رمى بسهم فبلغ فأصاب أو أخطأ كان كمتعق رقبة من بني إسماعيل » وروى أبو داود والنسائي بعضه .

وقال أحمد : حدثنا هاشم بن القاسم ، حدثنا الفرج ، حدثنا لقمان عن أبي أمامه عن عمرو بن عبسة ؛ قال السلمي : قلت له حدثنا حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ ليس فيه انتقاص ولا وهم ، قال : سمعته يقول : « من ولد له ثلاثة أولاد

في الإسلام فماتوا قبل أن يبلغوا الحنث أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم ، ومن شاب شبية في سبيل الله كانت له نوراً يوم القيامة ، ومن رمى بسهم في سبيل الله بلغ به العدو أصاب أو أخطأ كان له عتق رقبة ، ومن أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منه عضواً من النار ، ومن أنفق زوجين في سبيل الله فإن للجنة ثمانية أبواب يدخله الله من أي باب شاء منها « وهذه أسانيد جيدة قوية ، والله الحمد .

وقال أبو داود : حدثنا عيسى بن محمد الرملي ، حدثنا ضمرة عن ابن أبي عبله ، عن العريف بن عياش الديلمي ، قال : أتينا وائلة بن الأسقع فقلنا له : حدثنا حديثاً ليس فيه زيادة ولا نقصان ، فغضب وقال : إن أحدكم ليقرأ ومصحفه معلق في بيته ، فيزيد وينقص ، قلنا : إنما أردنا حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ ، قال : أتينا رسول الله ﷺ في صاحب لنا قد أوجب يعني النار بالقتل ، فقال : « أعتقوا عنه ، يعتق الله بكل عضو منه عضواً من النار » . وكذا رواه النسائي من حديث إبراهيم بن أبي عبله ، عن العريف بن عياش الديلمي ، عن وائلة به .

وقال أحمد : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا هشام ، عن قتادة ، عن قيس الجذامي ، عن عقبة بن عامر الجهني أن رسول الله ﷺ قال : « من أعتق رقبة مسلمة فهو فداؤه من النار » .

وحدثنا عبد الوهاب الخفاف ، عن سعيد عن قتادة ؛ قال : ذكر لنا أن قيساً الجذامي حدث عن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال : « من أعتق رقبة مؤمنة فهي فكاكه من النار » تفرد به أحمد من هذا الوجه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن آدم وأبو أحمد ، قالا : حدثنا عيسى بن عبد الرحمن الجلي ، من بني بجيلة ، من بني سليم ، عن طلحة بن مصرف ، عن عبد الرحمن بن عوسجة ، عن البراء بن عازب قال : جاء أعرابي إلى رسول

الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، علمني عملاً يدخلني الجنة ؛ فقال : « لئن كنت أقصرت الخطبة لقد أعرضت المسئلة ، أعتق النسمة وفك الرقبة » . فقال : يا رسول الله ، أوليستاً بواحدة؟ قال : « لا إن عتق النسمة أن تنفرد بعقتها ، ونك الرقبة أن تعين في عقتها ، والمنحة الكوف ، والفيء على ذي الرحم الظالم ، فإن لم تطق ذلك ، فأطعم الجائع ، واسق الظمآن ، واثمر بالمعروف ، وأنه عن المنكر ، فإن لم تطق ذلك ، فكف لسانك إلا من الخير» (١) .

المطلب التاسع فضل المؤذنين

من الذين يظهر فضلهم في يوم القيامة المؤذنون ، فهم أطول الناس أعناقاً في ذلك اليوم ، روى مسلم في صحيحه عن معاوية بن أبي سفيان قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « المؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة » (٢) . وطول العنق جمال ، ثم هو مناسب لما قاموا به من عمل حيث كانوا يبلغون الناس بأصواتهم كلمات الأذان التي تعلن التوحيد وتدعو للصلاة .

والمؤذن يشهد له في ذلك اليوم كل شيء سمع صوته عندما كان يرفع صوته بالأذان في الدنيا ، روى البخاري في صحيحه أن أبا سعيد الخدري قال لعبد الرحمن بن صعصعه : « إني أراك تحب الغنم والبادية ، فإذا كنت في غنمك أو باديتك فأذنت في الصلاة ، فارع بالنداء ، فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جنٌ ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة » (٣) .

(١) تفسير ابن كثير : (٢٩٥/٧) .

(٢) صحيح مسلم : (٢٩٠/٤) ورقم الحديث : ٣٨٧ .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب التوحيد ، باب قول النبي ﷺ : « الماهر بالقرآن ... » . فتح الباري : (٥١٨/١٣) .

المطلب العاشر الذين يشيرون في الإسلام

يكون الشيب نورا لصاحبه إذا كان مسلما في يوم القيامة ، كما صحت بذلك الأحاديث ، ففي سنن الترمذي والنسائي عن كعب بن مرة أن رسول الله ﷺ قال : « من شاب شيبية في الإسلام كانت له نورا يوم القيامة »^(١) .

وفي مسند أحمد وسنن الترمذي والنسائي وابن حبان عن عمر بن عبسة قال : قال رسول الله ﷺ : « من شاب شيبية في سبيل الله كانت له نورا يوم القيامة »^(٢) .

وروى البيهقي في شعب الإيمان بإسناد حسن عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « الشيب نور المؤمن ، لا يشيب رجل شيبية في الإسلام إلا كانت له بكل شيبية حسنة ، ورفع بها درجة »^(٣) . وللحديث شاهد من حديث أبي هريرة مرفوعا : « لا تنتفوا الشيب ، فإنه نور يوم القيامة ، من شاب شيبية في الإسلام كانت له بكل شيبية حسنة ، ورفع بها درجة » رواه ابن حبان بإسناد حسن^(٤) .

وروى ابن عدي والبيهقي في الشعب عن فضالة بن عبيد قال : قال رسول الله ﷺ : « الشيب نور في وجه المسلم ، فمن شاء فلينتف نوره »^(٥) .

(١) صحيح الجامع الصغير : (٣٠٤/٥) ورقم الحديث : ٦١٨٣ ، وعلم عليه الشيخ ناصر بالصحة .
(٢) صحيح الجامع الصغير : (٣٠٤/٥) ورقم الحديث : ٦١٨٤ ، والحديث صحيح كما قال محقق الكتاب .

(٣) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٢٤٧/٣) ، ورقم الحديث : ١٢٤٣ .

(٤) المصدر السابق .

(٥) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٢٤٧/٣) ، ورقم الحديث : ١٢٤٤ .

المطلب الحادي عشر فضل الوضوء

الذين استجابوا للرسول ﷺ ، وأقاموا الصلاة ، وأتوا بالوضوء كما أمرهم
نبيهم يُدْعَوْنَ يوم القيامة غراً محجلين من آثار الوضوء ، ففي صحيح البخاري عن
أبي هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أمتي يُدْعَوْنَ يوم القيامة غراً
محجلين من آثار الوضوء » (١) .

قال ابن حجر : « (غرا) جمع أغر ، أي ذو غُرَّة ، وأصل الغرة لمعة بيضاء
تكون في جبهة الفرس ، ثم استعملت في الجمال والشهرة وطيب الذكر ، والمراد
بها هنا النور الكائن في وجوه أمة محمد ﷺ ، وغُراً منصوب على المفعولية لِيُدْعَوْنَ أو
على الحال . أي أنهم إذا دعوا على رؤوس الأشهاد نودوا بهذا الوصف ، وكانوا على
هذه الصفة .

وقوله (محجلين) من التحجيل ، وهو بياض يكون في ثلاث قوائم من قوائم
الفرس ، وأصله من الحِجَل بكسر الحاء وهو الخللخال ، والمراد به هنا أيضا
النور » (٢) .

وهذه الغرة وذلك التحجيل تكون للمؤمن حلية في يوم القيامة ، ففي
صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « تبلغ
الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء » (٣) .

(١) صحيح البخاري ، كتاب الوضوء ، باب فضل الوضوء ، فتح الباري : (٢٣٥/١) .

(٢) فتح الباري : (٢٣٦/١) .

(٣) مشكاة المصابيح : (٩٦/١) ورقم الحديث : ٢٩١ .

وبهذه الحلية النورانية تتميز هذه الأمة في يوم القيامة ، وبها يعرف الرسول ﷺ أمته من بين الخلائق ، لا فرق بين أصحابه وغيرهم ، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ أتى مقبرة فقال : « السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، وددت أنا قد رأينا إخواننا » .

قالوا : أولسنا إخوانك يا رسول الله ؟

قال : « أنتم أصحابي ، إخواننا الذين لم يأتوا بعد » .

فقالوا : كيف تعرف من لم يأت بعد من امتك يا رسول الله ؟

فقال : « أرايت لو أن رجلا له خيل غر محجلة ، بين ظهري خيل دهم بهم ، ألا يعرف خيله ؟ » .

قالوا : بلى يا رسول الله .

قال : « فإنهم يأتون غرا محجلين من الوضوء وأنا فرطهم^(١) على

الحوض^(٢) » .

وروى أحمد بإسناد صحيح عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : « أنا أول من يؤذن له بالسجود يوم القيامة ، وأنا أول من يؤذن له أن يرفع رأسه ، فأنظر إلى ما بين يدي ، فأعرف أمتي من بين الأمم ، ومن خلفي مثل ذلك ، وعن يميني مثل ذلك ، وعن شمالي مثل ذلك » .

فقال رجل : يا رسول الله ، كيف تعرف أمتك من بين الأمم فيما بين نوح إلى

أمتك ؟

قال : « هم غُرُّ محجلون من أثر الوضوء ، ليس أحد كذلك غيرهم ، وأعرفهم أنهم يؤتون كتبهم بأيمانهم ، وأعرفهم تسعى بين أيديهم ذريتهم^(٣) » .

(١) أي سابقهم .

(٢) مشكاة المصابيح : (٩٨/١) ، ورقم الحديث : ٢٩٨ .

(٣) مشكاة المصابيح : (٩٩/١) ورقم الحديث ٢٩٩ .

الفصل التاسع الشفاعة

عندما يشتد البلاء بالناس في الموقف العظيم ويطول بحث العباد عن أصحاب المنازل العالية ليشفعوا لهم عند ربهم ، كي يأتي لفصل الحساب وتخليص الناس من كربات الموقف وأهواله ، فيطلبون من أبيهم آدم أن يقوم بهذه المهمة الكبيرة ، ويذكرونه بفضلته وإكرام الله له ، فيأبى ويعتذر ، ويذكر عصيانه ربه بأكله من الشجرة التي حرّم الله عليه الأكل منها ، ويحيلهم إلى نوح أول رسول أرسله الله إلى البشر ، الذي سماه الله عبداً شكوراً ، فيأبى ويذكر ما كان منه من تقصير في بعض الأمور تجاه ربه ومولاه ، وهكذا يحيلهم إلى من بعده من أولي العزم من الرسل ، والأخريدفعها إلى من بعده ، حتى يأتوا الرسول الخاتم : محمد ﷺ ، الذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فيقوم مقاماً يحمد عليه الأولون والآخرون ، وتظهر به منزلته العظيمة ، ودرجته العالية ، فيستأذن على ربه فيأذن له ، ويحمده ويمجّده ، ويسأله في أمته ، فيستجيب له ، ذلك أن الله أعطى كل نبي دعوة في أمته لا ترد ، وقد استعجل كل نبي تلك الدعوة في الدنيا ، واختبأ الرسول ﷺ دعوته إلى ذلك الموقف الذي تحتاج فيه أمته إلى دعوته ، فصلوات الله وسلامه عليه فإنه بالمؤمنين رؤوف رحيم ، كما وصفه ربه ، وقد ثبت في صحيح البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كل نبي سأل سؤالاً أو قال : لكل نبي دعوة دعاها لأمته ، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة » (١) .

(١) جامع الأصول : ٤٧٥/١٠ ، ورقم الحديث : ٨٠٠٩ .

وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قال : « لكل نبي دعوة دعا بها في أمته ، وخبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة » (١) .

وفي صحيح البخاري ومسلم وسنن الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لكل نبي دعوة مستجابة ، فتعجل كل نبي دعوته ، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة ، فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً » (٢) .

وروى الترمذي وأبو داود عن أنس بن مالك ، قال : قال رسول الله ﷺ : « شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي » (٣) .

(١) جامع الأصول : ٤٧٥/١٠ ، ورقم الحديث : ٨٠١٠ .

(٢) جامع الأصول : ٤٧٦/١٠ ، ورقم الحديث : ٨٠١١ .

(٣) جامع الأصول : ٤٧٦/١٠ ، ورقم الحديث : ٨٠١٢ وإسناده صحيح كما قال محقق الكتاب .

المَبْحَثُ الْأَوَّلُ أَحَادِيثُ شَفَاعَةِ

وقد جاءت أحاديث كثيرة تصف الشفاعة العظمى ، وسنكتفي بإيراد ما جمعه ابن الأثير منها في جامع الأصول^(١) .

١ - روى البخاري ومسلم في صحيحهما عن معبد بن هلال العنزي قال : « انطلقنا إلى أنس بن مالك ، وتشفعنا بثابت ، فانتبهنا إليه وهو يصلي الضحى ، فاستأذن لنا ثابت ، فدخلنا عليه ، وأجلس ثابتاً معه على سريره فقال له : يا أبا حمزة ، إن إخوانك من أهل البصرة يسألونك أن تحدثهم حديث الشفاعة .

فقال : حدثنا محمد ﷺ ، قال : « إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم إلى بعض ، فيأتون آدم ، فيقولون : اشفع لذريرتك ، فيقول : لست لها ، ولكن عليكم إبراهيم ، فإنه خليل الله ، فيأتون إبراهيم ، فيقول : لست لها ، ولكن عليكم موسى ، فإنه كلم الله ، فيؤتى موسى ، فيقول : لست لها ، ولكن عليكم عيسى ، فإنه روح الله وكلمته ، فيؤتى عيسى ، فيقول : لست لها ، ولكن عليكم محمد .

فاؤتى فأقول : أنا لها ، ثم انطلق فاستأذن على ربي ، فيؤذن لي ، فأقوم بين يديه ، فأحمده بمحامد لا أقدر عليها إلا أن يلهمنيها ، ثم أخرج لربنا ساجداً ،

(١) جامع الأصول : (٤٧٧/١٠) وقد أبقينا تخريج محقق الكتاب على حاله في الهامش .

فيقول : يا محمد ، ارفع رأسك ، وقل يسمع لك ، وسل تعطه ، واشفع تشفع ، فأقول : يا رب أمي أمي ، فيقول : انطلق ، فمن كان في قلبه مثال حبة من بُرّةٍ أو شعيرةٍ من إيمانٍ فأخرجه منها ، فأنطلق فأفعل .

ثم أرجع إلى ربي فأحمده بتلك المحامد ، ثم أخر له ساجداً ، فيقال لي : يا محمد ، ارفع رأسك ، وقل يسمع لك ، وسل تعطه ، واشفع تشفع ، فأقول : يا رب أمي أمي ، فيقال لي : انطلق ، فمن كان في قلبه مثقال حبةٍ من خردلٍ من إيمانٍ فأخرجه منها ، فأنطلق فأفعل .

ثم أعود إلى ربي أحمده بتلك المحامد ، ثم أخر له ساجداً ، فيقال لي : يا محمد ، ارفع رأسك وقل يسمع لك ، وسل تعطه ، واشفع تشفع ، فأقول : يا رب ، أمي أمي ، فيقال لي : انطلق ، فمن كان في قلبه أدنى أدنى من مثقال حبة من خردلٍ من إيمانٍ فأخرجه من النار فأنطلق فأفعل .

هذا حديث أنس الذي أنبأنا به ، فخرجنا من عنده ، فلما كنا بظهر الجبان^(١) ، قلنا : لو ملنا إلى الحسن فسلمنا عليه وهو مستخف في دار أبي خليفة؟ قال : فدخلنا عليه ، فسلمنا عليه ، قلنا : يا أبا سعيد ، جئنا من عند أخيك أبي حمزة ، فلم نسمع بمثل حديثٍ حدثناه في الشفاعة ، قال : هيه ، فحدثناه الحديث ، فقال : هيه ، قلنا : ما زادنا؟ قال : قد حدثنا به منذ عشرين سنة ، وهو يومئذ جميع^(٢) ، ولقد ترك شيئاً ما أدري : أنسي الشيخ ، أم كره أن يحدثكم فتتكلوا؟ قلنا له : حدثنا ، فضحك وقال : خلق الإنسان من عجل ، ما ذكرت لكم هذا إلا وأنا أريد أن أحدثكموه .

قال : « ثم أرجع إلى ربي في الرابعة فأحمده بتلك المحامد ، ثم أخر له

(١) الجبان ، والجبانة : المقابر .

(٢) رجل جميع : أي مجتمع الخلق قوي ، لم يهرم ، ولم يضعف .

ساجداً ، فيقال لي : يا محمد ، ارفع رأسك ، وقل يسمع لك ، وسل تعطه ،
واشفع تشفع ، فأقول : يا رب ائذن لي فيمن قال : لا إله إلا الله ، قال : فليس
ذلك لك ، أو قال : ليس ذلك إليك ، ولكن وعزتي وكبريائي وعظمتي لأخرجن
منها من قال : لا إله إلا الله « قال : فأشهد على الحسن أنه حدثنا به أنه سمع
أنس بن مالك - أراه قال : قبل عشرين سنة - وهو يومئذ جميع .

وفي رواية قتادة عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « يجمع الله الناس يوم
القيامة ، فيهتمون لذلك - وفي رواية : فيلهمون لذلك - فيقولون : لو استشفعنا
إلى ربنا ، حتى يريحنا من مكاننا هذا ؟ قال : فيأتون آدم ، فيقولون : أنت آدم أبو
الخلق ، خلقتك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك ،
اشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا ، فيقول : لست هناك ، فيذكر
خطيئته التي أصاب ، فيستحي ربه منها ، ولكن اتوا نوحاً أول رسول بعثه الله إلى
أهل الأرض .

قال : فيأتون نوحاً ، فيقول : لست هناك ، فيذكر خطيئته التي أصاب ،
فيستحي ربه منها ، ولكن اتوا إبراهيم الذي اتخذ الله خليلاً ، فيأتون إبراهيم ،
فيقول : لست هناك ، وذكر خطيئته التي أصاب ، فيستحي ربه منها ، ولكن
اتوا موسى الذي كلمه الله وأعطاه التوراة .

قال : فيأتون موسى ، فيقول : لست هناك ، ويذكر خطيئته التي أصاب ،
فيستحي ربه منها ، ولكن اتوا عيسى روح الله وكلمته ، فيأتون عيسى روح الله
وكلمته ، فيقول : لست هناك ، ولكن اتوا محمداً ، عبداً غفر الله له ما تقدم من
ذنبه وما تأخر .

قال : قال رسول الله ﷺ : فيأتونني ، فاستأذن علي ربي ، فيؤذن لي ، فإذا
أنا رأيته وقعت ساجداً فيدعني ما شاء الله ، فيقال : يا محمد ، ارفع ، قل يسمع ،

سل تعطه ، اشفع تشفع ، فأرفع رأسي ، فأحمد ربي بتحميد يعلمنيه ربي ، ثم أشفع ، فيحد لي حداً ، فأخرجهم من النار ، وأدخلهم الجنة ، ثم أعود فأقع ساجداً ، فيدعني ما شاء الله أن يدعني ، ثم يقال لي : ارفع يا محمد ، قل يسمع ، سل تعطه ، اشفع تشفع ، فأرفع رأسي ، فأحمد ربي بتحميد يعلمنيه ، ثم أشفع ، فيحد لي حداً ، فأخرجهم من النار ، وأدخلهم الجنة .

قال : فلا أدري في الثالثة أو في الرابعة فأقول : يا رب ، ما بقي في النار إلا من حبسه القرآن ، أو وجب عليه الخلود « أخرجه البخاري ومسلم .

وأخرجه البخاري تعليقاً : عن قتادة عن أنس أن النبي ﷺ قال : « يجبس المؤمنون يوم القيامة . . . وذكر نحوه ، وفي آخره : ما بقي في النار إلا من حبسه القرآن - أي وجب عليه الخلود - ثم تلا هذه الآية ﴿ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ (١) ، قال : وهذا المقام المحمود الذي وَعِدَهُ نبيكم ﷺ » .

زاد في رواية : فقال النبي ﷺ : « يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة ، ثم يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن برة ، ثم يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن ذرة » .

قال يزيد بن زريع : فلقيت شعبة ، فحدثته بالحديث ، فقال شعبة : حدثنا به قتادة عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ بالحديث ، إلا أن شعبة جعل مكان « الذرة » : « ذرة » قال يزيد : صحف فيها أبو بسطام ، كذا في كتاب مسلم من رواية يزيد عن شعبة . قال البخاري : وقال أبان عن قتادة بنحوه . وفيه « من إيمان » مكان « خير » زاد في رواية : أن النبي ﷺ قال - في حديث سؤال المؤمنين

(١) سورة الإسراء : ٧٩ .

الشفاعة - « فيأتوني فأستأذن على ربي في داره فيؤذن لي عليه » وللبخاري طرف منه عن حميد عن أنس قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « إذا كان يوم القيامة شفعت ، فقلت : أدخل الجنة من كان في قلبه خردلة ، فيدخلون ، ثم أقول : أدخل الجنة من كان في قلبه أدنى شيء . قال أنس : كأي أنظر إلى أصابع النبي ﷺ » (١) .

٢ - وروى البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « كنا مع النبي ﷺ في دعوة ، فرفع إليه الذراع - وكانت تعجبه - فنهس منها نهسة (٢) ، وقال : أنا سيد الناس يوم القيامة ، هل تدرون : مم ذلك ؟ يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد ، فيصبرهم الناظر ، ويسمعهم الداعي ، وتدنو منهم الشمس ، فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون ، فيقول الناس : ألا ترون إلى ما أنتم فيه ، إلى ما بلغكم ، ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم ؟ فيقول بعض الناس لبعض : أبوكم آدم .

فيأتونه ، فيقولون : يا آدم ، أنت أبو البشر ، خلقتك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك ، وأسكنك الجنة ، ألا تشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه وما بلغنا ؟ فقال : إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولا يغضب بعده مثله ، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيت ، نفسي ، نفسي ، اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى نوح .

فيأتون نوحاً ، فيقولون : يا نوح ، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض ، وقد سماك الله عبداً شكوراً ، ألا ترى ما نحن فيه ؟ ألا ترى إلى ما بلغنا ؟ ألا تشفع لنا

(١) رواه البخاري ٣٩٥/١٣ - ٣٩٧ في التوحيد ، باب كلام الرب تعالى يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم ، وباب قول الله تعالى : ﴿ لما خلقت بيدي ﴾ ، وباب قوله تعالى : ﴿ وكلم موسى تكليماً ﴾ وفي تفسير سورة البقرة ، باب قول الله تعالى : ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾ ، وفي الرقاق ، باب صفة الجنة والنار ، ومسلم رقم ١٩٣ في الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها .

(٢) النهس : أخذ اللحم بمقدم الأسنان .

عند ربك ؟ فيقول : إن ربي غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإنه قد كان لي دعوة دعوت بها على قومي ، نفسي ، نفسي ، نفسي ، اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى إبراهيم .

فيأتون إبراهيم فيقولون : أنت نبي الله ، وخليله من أهل الأرض ، اشفع لنا إلى ربك ، أما ترى إلى ما نحن فيه ؟ فيقول لهم : إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإني كنت كذبت ثلاث كذبات ... فذكرها - نفسي ، نفسي ، نفسي ، اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى موسى .

فيأتون موسى فيقولون : أنت رسول الله ، فضلك برسالاته وبكلامه على الناس ، اشفع لنا إلى ربك ، أما ترى إلى ما نحن فيه ؟ فيقول : إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإني قد قتلت نفساً لم أوامر بقتلها ، نفسي ، نفسي ، نفسي ، اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى عيسى .

فيأتون عيسى ، فيقولون : يا عيسى ، أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم ، وروح منه ، وكلمت الناس في المهد ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ فيقول عيسى : إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، ولم يذكر ذنبا ، نفسي ، نفسي ، نفسي ، اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى محمد ، فيأتون محمداً ﷺ - وفي رواية : فيأتوني - فيقولون : يا محمد ، أنت رسول الله وخاتم الأنبياء ، قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ فأنتقلق ، فآتي تحت العرش ، فأقع ساجداً لربي ، ثم يفتح الله علي من محامده وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتححه على أحد قبلي ، ثم يقال : يا محمد ، ارفع رأسك ، سل تعطه ، واشفع تشفع ، فأرفع رأسي ، فأقول : أمتي يا رب ، أمتي يا رب ، أمتي يا رب ، فيقال : يا محمد ، أدخل من

أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة ، وهم شركاء الناس فيها سوى ذلك من الأبواب ، ثم قال : والذي نفسي بيده ، إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة ، كما بين مكة وهجر - أو كما بين مكة وبصرى - وفي كتاب البخاري : كما بين مكة وحمير .

وفي رواية قال : « وضعت بين يدي رسول الله ﷺ قصعة من ثريد ولحم ، فتناول الذراع - وكانت أحب الشاة إليه - فنهس نهسة ، فقال : أنا سيد الناس يوم القيامة ، ثم نهس أخرى ، فقال : أنا سيد الناس يوم القيامة ، فلما رأى أصحابه لا يسألونه ، قال : ألا تقولون : كيفه ؟ قالوا : كيفه يا رسول الله ؟ قال : يقوم الناس لرب العالمين . . . وساق الحديث بمعنى ما تقدم ، وزاد في قصة إبراهيم ، فقال : وذكر قوله في الكوكب : هذاربي ، وقوله لآلهتهم ، بل فعله كبيرهم هذا ، وقوله : إني سقيم ، وقال : والذي نفس محمد بيده ، إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة إلى عضادتي الباب لكما بين مكة وهجر ، أو هجر ومكة ، لا أدري أي ذلك قال ؟ » أخرجه البخاري ومسلم والترمذي ، إلا أن في كتاب مسلم « نفسي نفسي » مرتين في قول كل نبي ، والحميدي ذكر كما نقلناه ، وفي رواية الترمذي « نفسي ، نفسي ، نفسي » ثلاثاً في الجمع^(١) .

وروي مسلم عن حذيفة بن اليمان ، وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله ﷺ : « يجمع الله تبارك وتعالى الناس ، فيقوم المؤمنون حتى تُزلف لهم الجنة ، فيأتون آدم ، فيقولون : يا أبانا ، استفتح لنا الجنة ، فيقول : وهل

(١) رواه البخاري ٢٦٤/٦ و ٢٦٥ في الأنبياء ، باب قول الله عز وجل : ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه ﴾ ، وباب قول الله تعالى : ﴿ واتخذ الله إبراهيم خليلاً ﴾ وفي تفسير سورة بني إسرائيل باب (ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً) ، ومسلم رقم ١٩٤ في الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها ، والترمذي رقم ٢٤٣٦ في صفة القيامة ، باب ماجاء في الشفاعة .

أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم ؟ لست بصاحب ذلك ، اذهبوا إلى ابني إبراهيم خليل الله ، قال : فيقول إبراهيم : لست بصاحب ذلك ، إنما كنت خليلاً من وراء وراء ، اعمدوا إلى موسى الذي كلمه تكليماً ، قال : فيأتون موسى ، فيقول : لست بصاحب ذلك ، اذهبوا إلى عيسى كلمة الله وروحه ، فيقول عيسى : لست بصاحب ذلك ، فيأتون محمداً ﷺ : فيقوم ، فيؤذن له ، وترسل الأمانة والرحم ، فتقومان جنبتي الصراط يميناً وشمالاً ، فيمر أولكم كالبرق ، قال : بأبي وأمي ، أي شيء كالبرق ، قال : ألم تروا إلى البرق كيف يمر ويرجع في طرفة عين ؟ ثم كمرُّ الريح ، ثم كمرُّ الطير ، وشد الرجال ، تجري بهم أعمالهم ، ونببكم قائم على الصراط ، فيقول : رب سلم سلم ، حتى تعجز أعمال العباد ، حتى يجيء الرجل فلا يستطيع السير إلا زحفاً ، قال : وفي حافتي الصراط كلاليب معلقة مأمورة ، تأخذ من أمرت به ، فمخدوش ناج ، ومكدوس^(١) في النار ، والذي نفسُ أبي هريرة بيده ، إن قعر جهنم لسبعين^(٢) خريقاً^(٣) .

٤ - روي الترمذي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ؛ « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ، ولا فخر ، وييدي لواء الحمد ولا فخر ، وما من نبي يومئذ - آدم فمن سواه - إلا تحت لوائي ، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر ، فقال : فيفزع الناس ثلاث فزعات ، فيأتون آدم ، فيقولون : أنت أبونا آدم ، فاشفع لنا إلى ربك ، فيقول : إني أذنبت ذنباً فأهبطت به إلى الأرض ، ولكن اتتوا نوحاً ، فيأتون نوحاً ، فيقول : إني دعوت على أهل الأرض دعوة فأهلكوا ، ولكن اذهبوا إلى إبراهيم ، فيأتون إبراهيم ،

(١) وفي بعض النسخ ومكدوس .

(٢) وفي بعض النسخ : لسبعون ، وكلاهما صحيح ، وانظر ما قاله النووي في شرح مسلم .

(٣) رقم ١٩٥ في الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها .

فيقول : إني كذبت ثلاث كذبات ، ثم قال رسول الله ﷺ : ما منها كذبة إلا ما حل (١) بها عن دين الله ، ولكن اثتوا موسى ، فيأتون موسى ، فيقول : قد قتلت نفساً ، ولكن اثتوا عيسى ، فيأتون عيسى ، فيقول : إني عُبدتُ من دون الله ، ولكن اثتوا محمداً ﷺ ، فيأتوني ، فانطلق معهم . قال ابن جدعان : قال أنس : فكأنني أنظر إلى رسول الله ، قال : فأخذ بحلقة باب الجنة ، فأقعقعها ، فيقال : من هذا ؟ فيقال : محمد ، فيفتحون لي ويرحبون ، فيقولون : مرحباً ، فأخبر ساجداً ، فيلهمني الله من الثناء والحمد ، فيقال لي : ارفع رأسك ، سل تُعط ، واشفع تُشفع ، وقل يُسمع لقولك ، وهو المقام المحمود الذي قال الله تعالى : ﴿عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ (٢) قال سفيان : ليس عن أنس إلا هذه الكلمة « فأخذ بحلقة باب الجنة فأقعقعها » أخرجه الترمذي (٣) .

(١) الماحلة : المخاصمة والمجادلة .

(٢) سورة الإسراء : ٧٩ .

(٣) رقم ٣١٤٧ في التفسير ، باب ومن سورة بني إسرائيل ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن ، وهو كما قال .

المَبْحَثُ الثَّانِي

وجه الاستدلال بالأحاديث على شفاعته لعظمتي

الناظر في هذه الأحاديث يجد أن المؤمنين يرغبون إلى الأنبياء وآخرهم محمد ﷺ كي يخلصوهم من الموقف العظيم ، إلا أننا نجد أن الرسول ﷺ عندما يشفع إنما يشفع في أمته ، قال شارح الطحاوية بعد إيراد بعض أحاديث الشفاعة التي سقناها : « والعجب كل العجب من إيراد الأئمة لهذا الحديث من أكثر طرقه ، لا يذكرون أمر الشفاعة الأولى ، في مآق الرب سبحانه وتعالى لفصل القضاء ، كما ورد في حديث الصور ، فإنه المقصود في هذا المقام ، ومقتضى سياق أول الحديث ، فإن الناس إنما يستشفعون إلى آدم فمن بعده من الأنبياء في أن يفصل بين الناس ، ويستريحوا من مقامهم ، كما دلت عليه سياقاته من سائر طرقه ، فإذا وصلوا إلى الجزاء إنما يذكرون الشفاعة في عصاة الأمة وإخراجهم من النار ، وكأن مقصود السلف - في الإقتصار على هذا المقدار من الحديث - هو الرد على الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة ، الذين أنكروا خروج أحد من النار بعد دخولها ، فيذكرون هذا القدر من الحديث الذي فيه النص الصريح من الرد عليهم فيما ذهبوا إليه من البدعة المخالفة للأحاديث »^(١) ثم ساق مضمون حديث الصور .

وفي كلام محمد بن محمد بن أبي العز الحنفي عدة أمور :

١ - أنه أكد وجود هذا الإشكال في هذه الأحاديث ، وعن ذكر هذا الإشكال ابن

(١) شرح الطحاوية : ص ٢٥٥ .

حجر العسقلاني ، ونقله عن الدراوردي ، فإنه قال : « كأن راوي هذا الحديث ركب شيئا على غير أصله ، وذلك أن في أول ذكر الشفاعة في الإراحة من كرب الموقف ، وفي آخره ذكر الشفاعة في الإخراج من النار ، يعني وذلك إنما يكون بعد التحول من الموقف والمرور على الصراط ، وسقوط من يسقط في تلك الحالة في النار ، ثم يقع بعد ذلك الشفاعة في الإخراج »^(١) قال ابن حجر بعد نقله كلام الدراوردي « وهو إشكال قوي »^(٢) .

٢- وقد أجاب شارح الطحاوية عن هذا الإشكال - كما نقلناه عنه - أن الذين نقلوا هذه النصوص قصرُوا في النقل ، وسرَّ هذا التقصير أنهم قصدوا الرد على الخوارج الذين أنكروا خروج أحد من النار بعد دخولها ، وزعموا أن كل من دخل النار فإنه فيها خالد ، واحتج على ما ذهب إليه بحديث الصور الذي يصرح فيه بأن الرسول ﷺ يشفع أولاً كي يأتي الحق للقضاء بين الناس ، ثم يشفع مرة أخرى لدخول الجنة ، ولو كان حديث الصور هذا صحيحاً لكان فيه حل لهذا الإشكال ، ولكنه حديث ضعيف كما بينه الشيخ ناصر الدين الألباني في تحقيقه لأحاديث الطحاوية .

ولعل ما ذهب إليه القاضي عياض وتابعه النووي وابن حجر وغيرهما عليه أكثر دقةً وتوفيقاً مما قاله شارح الطحاوية ، قال ابن حجر : « وقد أجاب عن هذا الإشكال عياض وتبعه النووي وغيره بأنه قد وقع في حديث حذيفة المقرون بحديث أبي هريرة بعد قوله : « فيأتون محمداً فيقوم ويؤذن له » أي في الشفاعة ، وترسل الأمانة والرحم ، فيقومان جنبي الصراط يمينا وشمالا ، فيمر أولكم

(١) فتح الباري : (٤٣٧/١١) .

(٢) فتح الباري : (٤٣٨/١١) .

كالبرق» الحديث ، قال عياض : فهذا يتصل الكلام ، لأن الشفاعة التي لجأ إليه الناس فيها هي الإراحة من كرب الموقف ، ثم تحيء الشفاعة في الإخراج ، وقد وقع في حديث أبي هريرة . . الأمر باتباع كل أمة ما كانت تعبد ، ثم تمييز المنافقين من المؤمنين ، ثم حلول الشفاعة بعد وضع الصراط والمروء عليه ، فكان الأمر باتباع كل أمة ما كانت تعبد هو أول فصل القضاء والإراحة من كرب الموقف ، قال : وبهذا تجتمع متون الأحاديث ، وتترتب معانيها^(١) ، وقد زاد الحافظ ابن حجر هذه المسألة إيضاحاً ، وأورد النصوص الدالة على أن في بعض الأحاديث شيئاً من الإختصار فقال : « قلت : فكان بعض الرواة حفظ ما لم يحفظ الآخر ، وسيأتي بقيته في شرح حديث الباب الذي يليه وفيه « حتى يحيى الرجل فلا يستطيع السير إلا زحفاً وفي جانبي الصراط كلاليب مأمورة بأخذ من أمرت به ، فمخدوش ناج ومكدوس في النار » فظهر منه أنه ﷺ أول ما يشفع ليقضي بين الخلق ، وأن الشفاعة فيمن يخرج من النار ممن سقط تقع بعد ذلك .

وقد وقع ذلك صريحاً في حديث ابن عمر اختصر في سياقه الحديث الذي ساقه أنس وأبو هريرة مطولاً . وقد تقدم في كتاب الزكاة من طريق حمزة بن عبدالله بن عمر عن أبيه بلفظ : « إن الشمس تدنو حتى يبلغ العرق نصف الأذن ، فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم ثم بموسى ثم بمحمد فيشفع ليقضي بين الخلق ، فيمشي حتى يأخذ بحلقة الباب ، فيومئذ يبعثه الله مقاماً محموداً يحمداه أهل الجمع كلهم .

ووقع في حديث أبي بن كعب عند أبي يعلى « ثم أمتدحه بمدحة يرضى بها عني ، ثم يؤذن لي في الكلام ، ثم تمر أمتي على الصراط وهو منصوب بين ظهراي جهنم فيمرون » .

(١) فتح الباري : (١١/٤٣٨) .

وفي حديث ابن عباس من رواية عبدالله بن الحارث عنه عند أحمد « فيقول عز وجل : يا محمد ما تريد أن أصنع في أمتك ؟ فأقول : يا رب عجل حسابهم » وفي رواية عن ابن عباس عند أحمد وأبي يعلي « فأقول أنا لها ، حتى يأذن الله لمن يشاء ويرضى ، فإذا أراد الله أن يفرغ من خلقه نادى مناد : أين محمد وأمته » .

وتعرض الطيبي للجواب عن الإشكال بطريق آخر فقال : يجوز أن يراد بالنار الحبس والكرب والشدة التي كان أهل الموقف فيها من دنو الشمس إلى رؤوسهم وكربهم بحرُّها وسفعتها حتى أجمعهم العرق ، وأن يراد بالخروج منها خلاصهم من تلك الحالة التي كانوا فيها .

قال ابن حجر : وهو احتمال بعيد ، إلا أن يقال إنه يقع إخراجان وقع ذكر أحدهما في حديث الباب على اختلاف طرقه والمراد به الخلاص من كرب الموقف ، والثاني في حديث الباب الذي يليه ويكون قوله فيه : « فيقول من كان يعبد شيئاً فليتبعه » بعد تمام الخلاص من الموقف ونصب الصراط والإذن في المرور عليه ، ويقع الإخراج الثاني لمن يسقط في النار حال المرور فيتحداه .

وأجاب القرطبي عن أصل الإشكال بأن في قوله آخر حديث أبي زرعة عن أبي هريرة بعد قوله ﷺ فأقول : يا رب أمتي أمتي ، « فيقال أدخل من أمتك من الباب الأيمن من أبواب الجنة من لا حساب عليه ولا عذاب » . فقال : في هذا ما يدل على أن النبي ﷺ يشفع فيما طلب من تعجيل الحساب ، فإنه لما أذن له في ادخال من لا حساب عليه دل على تأخير من عليه حساب ليحاسب ، ووقع في حديث الصور الطويل عند أبي يعلي « فأقول وعدتني الشفاعة فشفعتي في أهل الجنة يدخلون الجنة ، فيقول الله : وقد شفعتك فيهم وأذنت لهم في دخول الجنة » .

قلت : وفيه إشعار بأن العرض والميزان وتطير الصحف يقع في هذا

الموطن ، ثم ينادي المنادي : ليتبع كل أمة من كانت تعبد ، فيسقط الكفار في النار ، ثم يميز بين المؤمنين والمنافقين بالامتحان بالسجود عند كشف الساق ، ثم يؤذن في نصب الصراط والمرور عليه ، فيطفأ نور المنافقين فيسقطون في النار أيضا ، ويمر المؤمنون عليه إلى الجنة ، فمن العصاة من يسقط ويوقف بعض من نجا عند القنطرة بينهم ثم يدخلون الجنة» (١) .

قلت : فهذا لو ثبت لرفع الإشكال لكن الكلبي ضعيف ، ومع ذلك لم يسنده ، ثم هو مخالف لصريح الأحاديث الصحيحة أن سؤال المؤمنين الأنبياء واحدا بعد واحد إنما يقع في الموقف قبل دخول المؤمنين الجنة والله أعلم .

(١) فتح الباري : (٤٣٨/١١) .

المبحث الثالث

إشفاعة المقبولة. وإشفاعة المرفوضة وأنواع إشفاعة المقبولة

دلت الأحاديث التي سقناها على نوعين من أنواع الشفاعة التي تقع في ذلك اليوم .

الأول : الشفاعة العظمى ، وهي المقام المحمود ، الذي يرغب الأولون والآخرون فيه إلى الرسول ﷺ ليشفع إلى ربه كي يخلص العباد من أهوال المحشر .

الثاني : الشفاعة في أهل الذنوب من الموحدین الذين دخلوا النار ، وسيأتي الحديث عن هذا النوع في مبحث « دخول الجنة » من كتاب « الجنة والنار » إن شاء الله تعالى .

وبقي أنواع جاء ذكرها في الأحاديث نعرض لها هنا على وجه الاختصار :

الأول والثاني : شفاعة الرسول ﷺ في أقوام تساوت حسناتهم وسيئاتهم ، فيشفع فيهم ليدخلوا الجنة ، وفي آخرين قد أمر بهم إلى النار أن لا يدخلوها .

الثالث : شفاعته ﷺ في رفع درجات من يدخل الجنة فيها فوق ما كان يقتضيه ثواب أعمالهم .

الرابع : الشفاعة في أقوام يدخلون الجنة بغير حساب ، ويمكن أن يستشهد لهذا بحديث عكاشة بن محصن حيث دعا له الرسول ﷺ أن يجعله من السبعين

ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب ، والحديث في الصحيحين .

الخامس : شفاعة الرسول ﷺ في تخفيف عذاب عمه أبي طالب ، حيث يخرج الله به إلى ضحضاح من نار يغطي قدميه يغلي لها دماغه .

السادس : شفاعته في الإذن للمؤمنين بدخول الجنة ، وسيأتي الحديث عن هذا النوع في كتاب الجنة إن شاء الله تعالى . (١) .

والشفاعة في أهل الذنوب ليست خاصة بالرسول ﷺ ، فقد يشفع النبيون والشهداء والعلماء ، وقد يشفع للمرء أعماله ، ولكن رسولنا ﷺ له النصيب الأوفر منها ، وقد يشفع غيره أيضا في رفع درجات المؤمنين ، وببقية الأنواع خاصة بالرسول ﷺ .

هذه هي أنواع الشفاعة التي تقع في يوم القيامة ، أما الشفاعة المرفوضة فهي الشفاعة التي يتعامل بها الناس في الدنيا ، حيث يشفع الشافع وإن لم يرض الذي شفَع عنده ، وقد يكره مَنْ شفَع عنده على قبول شفاعة الشافعين لعظم منزلتهم وقوتهم وبأسهم ، وهذه هي الشفاعة التي يعتقدها المشركون والنصارى في آلهتهم ، ويعتقدها المتدعون من هذه الأمة في مشايخهم ، وقد أكذب الله أصحابها ، فلا أحد يشفع في ذلك اليوم إلا بإذن من الله ، ولا يشفع إلا إذا رضي الله عن الشافع والمشفوع ، قال تعالى : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ (٢) وقال : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرَادْتُمْ ﴾ (٣) .

ولذلك فإن والد إبراهيم لما مات كافراً فإن الله لا يقبل شفاعة خليله فيه في

(١) انظر في هذا الموضوع شرح الطحاوية : ٢٥٣ .

(٢) سورة البقرة : ٢٥٥ .

(٣) سورة الأنبياء : ٢٨ .

ذلك اليوم : روي البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : يلقي إبراهيم أباه آزر في يوم القيامة ، وعلى وجه آزر قرة وغبرة ، فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك : لا تعصني ؟ فيقول له أبوه : فاليوم لا أعصيك ، فيقول إبراهيم : يا رب ، إنك وعدتني أن لا تخزني يوم يبعثون ، فأني خزي أخزى من أبي الأبعد ؟ فيقول الله تعالى : إني حرمت الجنة على الكافرين . ثم يقال لإبراهيم : ما تحت قدميك ؟ فينظر فإذا هو بذبيح متلطح ، فيؤخذ بقوائمه ، فيلقى في النار^(١) .

(١) مشكاة المصابيح : ٥٨/٣ .

obeikandi.com

الفصل العاشر الحساب والجزاء

تمهيد: المراد بالحساب والجزاء

يراد بالحساب والجزاء أن يُوقف الحقُّ تبارك وتعالى عباده بين يديه ، ويعرفهم بأعمالهم التي عملوها ، وأقوالهم التي قالوها ، وما كانوا عليه في حياتهم الدنيا من إيمان وكفر ، واستقامة وانحراف ، وطاعة وعصيان ، وما يستحقونه على ما قدموه من إثابة وعقوبة ، وإيتاء العباد كتبهم بأيمانهم إن كانوا صالحين ، وبسألمهم إن كانوا طالحين .

ويشمل الحساب ما يقوله الله لعباده ، وما يقولونه له ، وما يقيمه عليهم من حجج وبراهين ، وشهادة الشهود ووزن للإعمال .

والحساب منه العسير ، ومنه اليسير ، ومنه التكريم ، ومنه التوبيخ والتبكيث ، ومنه الفضل والصفح ، ومتولى ذلك أكرم الأكرمين .

المَبْحَثُ الْأَوَّلُ مَشْهَدُ الْحِسَابِ

حدثنا ربنا عن مشهد الحساب والجزاء في يوم الحساب فقال : ﴿ وَأَشْرَقَتِ
الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجَاءَءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ
وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (١) . وحسبنا أن نعلم أن القاضي والمحاسب في ذلك اليوم هو
الحكم العدل قيوم السموات والأرض ليتبين لنا عظم هذا المشهد وجلاله
ومهابته ، ولعل هذا الإشراق المنصوص عليه في الآية ، إنما يكون عند مجيء
الملك الجليل لفصل القضاء ، قال تعالى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي
ظُلْمٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ (٢) ، وهو مجيء الله
أعلم بكيفيته ، تؤمن به ونعلم أنه حق ، ولا نؤوله ولا نحرفه ، ولا نكذب به ،
والآية تنص على مجيء الملائكة ، فهو موقف جليل تحضره ملائكة الرحمن بكتب
الأعمال التي أحصت على الخلق أعمالهم وتصرفاتهم وأقوالهم ليكون حجة على
العباد ، وهو كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى
الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا
كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلَمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ (٣) .

ويجاء في موقف القضاء والحساب بالرسول ويسألون عن الأمانة التي حملهم

(١) سورة الزمر : ٦٩ .

(٢) سورة البقرة : ٢١٠ .

(٣) سورة الكهف : ٤٧ .

الله إياها . وهي إبلاغ وحي الله إلى من أرسلوا إليه ، ويشهدون على أقوامهم ما علموه منهم .

ويقوم الأشهاد في ذلك اليوم العظيم فيشهدون على الخلائق بما كان منهم ، والأشهاد هم الملائكة الذين كانوا يسجلون على المرء أعماله ، ويشهد أيضا الأنبياء والعلماء كما تشهد على العباد الأرض والسماء والليالي والأيام .

ويؤق بالعباد الذين عقد الحق محكمته العظيمة لمحاسبتهم ، ويقامون صفوفًا للعرض على رب العباد ﴿ وَعَرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا ﴾ (١) ، ويؤق بالمجرمين منهم وهم الذين كذبوا الرسل ، وتمردوا على ربهم ، واستعلوا في الأرض - مقرنين في الأصفاد ، مسربلين بالفطران ، ﴿ وَتَرَىٰ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴾ (٢) سُرَابِيلُهُمْ مِّنْ قَطْرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهُهُمُ النَّارُ ﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (٣) ولشدة الهول تجثوا الأمم على الركب عندما يدعى الناس للحساب لعظم ما يشاهدون ، وما هم فيه واقعون ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُحْجَرُونَ مَآ كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٤) .

إنه مشهد جليل عظيم نسأل الله أن ينجيننا فيه بفضلِهِ وَمَنَّهُ وَكْرَمِهِ .

(١) سورة الكهف : ٤٨ .

(٢) سورة إبراهيم : ٤٩ - ٥١ .

(٣) سورة الجاثية : ٢٧ .

المَبْحَثُ الثَّانِي

هَلْ يُسْأَلُ الْكُفَّارُ؟ وَلِمَاذَا يُسْأَلُونَ؟

اختلف العلماء في الكفار : هل يحاسبون ويسألون ؟ أم يأمر بهم إلى النار من غير سؤال ، لأن أعمالهم باطلة حابطة فلا فائدة من السؤال والحساب ؟ وإذا كانوا يحاسبون ويسألون فما فائدة حسابهم وسؤالهم ؟

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : « هذه المسألة تنازع فيها المتأخرون من أصحاب أحمد وغيرهم ، فمن قال إنهم لا يحاسبون أبو بكر عبدالعزیز ، وأبو الحسن التميمي ، والقاضي أبو يعلى ، وغيرهم ، ومن قال : إنهم يحاسبون : أبو حفص البرمكي من أصحاب أحمد ، وأبوسليمان الدمشقي ، وأبو طالب » (١) .

والصحيح أن الكفار محاسبون مسؤولون كما أن أعمالهم توزن ، وقد دلت على ذلك نصوص كثيرة ، كقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٣) ، وقوله : ﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٦٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٦٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ ﴿٧٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴿٧١﴾ ﴾ (٤) ، وقوله : ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ (٥)

(١) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : (٤/٣٠٥) .

(٢) سورة القصص : ٦٢ .

(٣) سورة القصص : ٦٥ .

(٤) سورة القارعة : ٦ - ١١ .

تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تُلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكذِّبُونَ ﴿١٠٤﴾ ، ولا شك أن هذه النصوص في الكفار المشركين .

أما لماذا يحاسبون وتوزن أعمالهم مع أن أعمالهم حابطة مردودة فلأمور :

الأول : إقامة الحجة عليهم ، وإظهار عدل الله فيهم ، ولا أحد أحب إليه العذر من الله ، وهو صاحب العدل المطلق ، ولذلك يسألهم ويحاسبهم ، ويطلعهم على سجلاتهم التي حوت أعمالهم ، ويظهر الميزان عظم سيئاتهم وشناعة أفعالهم ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ نَجْدٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَوْنًا بِنَا حَسِيبِينَ ﴾ (٢) ، ﴿ وَوَضِعُ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ (٣) .

يقول القرطبي : « والباري - سبحانه وتعالى - يسأل الخلق في الدنيا والأخرة تقريراً لإقامة الحجة وإظهاراً للحكمة » (٤) .

الثاني : أن الله يحاسبهم لتوبيخهم وتقريعهم ، يقول شيخ الإسلام : « يراد بالحساب عرض أعمال الكفار عليهم وتوبيخهم عليها ، ويراد بالحساب موازنة الحسنات بالسيئات ، فإن أريد بالحساب المعنى الأول ، فلا ريب أنهم يحاسبون بهذا الاعتبار .

وإن أريد به المعنى الثاني فإن قصد ذلك أن الكفار تبقى لهم حسنات

(١) سورة المؤمنون : ١٠٣ .

(٢) سورة الأنبياء : ٤٧ .

(٣) سورة الكهف : ٤٩ .

(٤) تذكرة القرطبي : ٢٢٥ .

يستحقون بها الجنة فهذا خطأ ظاهر^(١) .

وهذا التائب والتقريب والتوبيخ ظاهر من نصوص كثيرة كقوله تعالى ؛
﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا
الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾^(٢) . وقوله ﴿ يَمْعَشِرَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ الرَّيَّاتِكُمْ رَسُولٌ
مِّنْكُمْ يَقْمِئُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا
وَعَرَّيْتُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾^(٣) ، وقوله : ﴿ وَرَزَقَتْ
الْحَبْحِمُ اللَّغَاوِينَ ﴾^(٤) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ^(٥) ، وقوله : ﴿ وَقِيلَ أَدْعُوا
شُرَكَاءَ كُفْرِهِمْ فَعَدَّوهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يهْتَدُونَ ﴾^(٦) .

قال ابن كثير : « وأما الكفار فتوزن أعمالهم ، وإن لم تكن لهم حسنات
تفعلهم يقابل بهذا كفرهم ، لإظهار شقائهم وفضيحتهم على رؤوس
الخلائق^(٦) .

الثالث : أن الكفار مكلفون بأصول الشريعة كما هم مكلفون بفروعها ،
فيسألون عما قصروا فيه وخالفوا فيه الحق ، يقول القرطبي : « وفي القرآن ما يدل
على أنهم مخاطبون بها (أي فروع الشريعة) مسؤولون عنها ، محاسبون بها ،
مجزيون على الإخلال بها ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ لَا

(١) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : (٤/٣٠٥) .

(٢) سورة الأنعام : ٣٠ .

(٣) سورة الأنعام : ١٣٠ .

(٤) سورة الأعراف : ٤٤ .

(٥) سورة القصص : ٦٤ .

(٦) النهاية ، لابن كثير : (٢/٣٥) .

يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴿١﴾ فتوعدهم على منعهم الزكاة ، وأخبر عن المجرمين أنهم يقال لهم : ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴾ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَرَنَّا نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَرَنَّا نَكُ نَطْعِمُ الْمَسْكِينِ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَحُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نَكْذِبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ فبان بهذا أن المشركين مخاطبون بالإيمان والبعث وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وأنهم مسؤولون عنها ، مجزيون بها « (٣) .

الرابع : أن الكفار يتفاوتون في كفرهم وذنوبهم ومعاصيهم ، ويحلون في النار بمقدار هذه الذنوب ، فالنار دركات بعضها تحت بعض ، كما أن الجنة درجات بعضها فوق بعض ، وكلما كان المرء أشد كفراً وضلالاً كلما كان أشد عذاباً ، وبعض الكفرة يكون في الدرك الأسفل من النار ، ومنهم المنافقون ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ ﴿٤﴾ .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : « عقاب من كثرت سيئاته أعظم من عقاب من قلَّت سيئاته ، ومن كان له حسنات خففت عنه العذاب ، كما أن أبا طالب أخف عذاباً من أبي لهب . . فكان الحساب لبيان مراتب العذاب ، لا لأجل دخولهم الجنة » (٥) . ويذكر القرطبي في وزن أعمال العباد وجهين :

الأول : أنه يوضع في إحدى الكفتين كفرة وسيئاته . ولا يجد الكافر حسنة توضع في الكفة الأخرى ، فترجح كفة السيئات لكون كفة الحسنات فارغة .

والثاني : أن حسنات الكافر من صلة رحم ، وصدقة ، ومواساة للناس توضع في كفة الحسنات ، ولكن كفة السيئات ترجح بسبب كفره وشركه (٦)

(١) سورة فصلت : ٧-٦ .

(٢) سورة المدثر : ٤٢-٤٦ .

(٣) تذكرة القرطبي : ٣٠٩ .

(٤) سورة النساء : ١٤٥ .

(٥) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : (٣٠٥/٤) .

(٦) تذكرة القرطبي : ٣١٢ .

والوجه الأول هو الصحيح لأن الشرك يحبط العمل ، ﴿ لَنْ أُشْرِكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ (١) ﴿ وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكَ عَنْ دِينِهِ ، فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٢) . وفي الحديث : « إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا وابتغى به وجهه » (٣) .

٢ - ولأنه قد صحَّ أن الرسول ﷺ أخبر أن الكافر يطعم بحسنته في الدنيا فيوافي يوم القيامة وليس له حسنة ، ففي صحيح مسلم ، ومسنند أحمد أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله لا يظلم مؤمنا حسنته ، يعطى بها في الدنيا (وفي رواية يثاب عليها الرزق في الدنيا) ويجزى بها في الآخرة ، وأما الكافر فيطعم بها بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا ، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له حسنة يجزى بها » (٤)

توجيه لنصوص الدالة على أن الكفار لا يسألون

فإن قيل : قررتم فيما سبق أن الكفار يسألون ويجادلون ويتكلمون ويعتذرون ، فكيف تفعلون بالنصوص الدالة على خلاف ذلك ، كقوله تعالى ﴿ وَلَا يَسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ (٥) ، وقوله ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴾ (٦) ، وقوله : ﴿ هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ﴾ (٧) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ (٧) ، ونحو ذلك من النصوص .

(١) سورة الزمر : ٦٥ .

(٢) سورة البقرة : ٢١٧ .

(٣) رواه النسائي في الجهاد عن أبي أمامة انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة حديث رقم : ٥٢ .

(٤) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٨٢/١) ورقمه : ٥٣ .

(٥) سورة القصص : ٧٨ .

(٦) سورة الرحمن : ٣٩ .

(٧) سورة المرسلات : ٣٥ .

فنعول لیس بین هذه النصوص وتلك تعارض ، وقد وفق أهل العلم بينهما
بوجه عدة .

الأول : أن الكفار لا يسألون سؤال شفاء وراحة ، وإنما يسألون سؤال
تقريع وتوبيخ ، لم عملتم كذا وكذا^(١) ؟ وكذا يقال في تكليمهم واعتذارهم ، أي
لا يكلمهم الله بما يحبونه ، بل يكلمهم كلام تقريع وتوبيخ^(٢) .

الثاني : أنهم لا يسألون سؤال استفهام ، لأنه تعالى عالم بكل أعمالهم ،
وإنما يسألون سؤال تقرير ، فيقال لهم : لم فعلتم كذا ؟ قال الحسن وقتادة : لا
يسألون عن ذنوبهم ، لأن الله حفظها عليهم وكتبها عليهم الملائكة^(٣) .

الثالث : أنهم يسألون في يوم القيامة في موطن دون موطن ، قال
القرطبي : « القيامة مواطن ، فموطن يكون فيه سؤال وكلام ، وموطن لا يكون
ذلك »^(٤) .

وقال السفاريني : « وقيل يسألون في موطن دون موطن رواه عكرمة عن
ابن عباس رضي الله عنهما . . فللناس يوم القيامة حالات ، والآيات مخرجة
باعتبار تلك الحالات ، ومن ثم قال الإمام أحمد في أجوبته القرآنية : أول ما
تبعث الخلائق على مقدار ستين سنة لا ينطقون ، ولا يؤذن لهم في الاعتذار
فيعتذرون ، ثم يؤذن لهم في الكلام فيتكلمون ، فذلك قوله تعالى ؛ ﴿ رَبَّنَا
أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَأَرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا ﴾^(٥) »^(٦) الآية ، فإذا أذن لهم في الكلام

(١) التذكرة للقرطبي : ٢٨٦ .

(٢) انظر : تذكرة القرطبي : ٢٨٧ .

(٣) لوامع الأنواء البهية : (٢/١٧٤) .

(٤) تذكرة القرطبي : ٢٨٦ .

(٥) سورة السجدة : ١٢ .

(٦) لوامع الأنوار البهية : (٢/١٧٤) .

تكلّموا ، واختصموا ، فذلك قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾^(١) ، عند الحساب وإعطاء المظالم ، ثم يقال لهم بعد ذلك : ﴿ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُمْ إِلَيَّ بِالْوَعِيدِ ﴾^(٢) ، يعني في الدنيا ، فإن العذاب مع هذا القول كائن^(٣) . »

الرابع : قال القرطبي : « إن معنى قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾^(٤) ، سؤال التعرف لتمييز المؤمنين من الكافرين ، أي إن الملائكة لا تحتاج أن تسأل أحدا يوم القيامة أن يقال : ما دينك ؟ وما كنت تصنع في الدنيا ؟ حتى يتبين لهم بإخباره عن نفسه أنه كان مؤمنا أو كان كافرا ، لكن المؤمنين يكونون ناضري الوجوه منشرحي الصدور ، ويكون المشركون سود الوجوه زرقا مكرويين ، فهم إذا كلفوا سوق المجرمين إلى النار ، وتميزهم في الموقف كفتهم مناظرهم عن تعرف أديانهم . . . »^(٥) .

(١) سورة الزمر : ٣١ .

(٢) سورة ق : ٢٨ .

(٣) لوامع الأنوار البهية : ١٧٤/٢ .

(٤) سورة القصص : ٧٨ .

(٥) تذكرة القرطبي : ٢٨٧ .

المبحث الثالث

لقواعد النبي بحاسب العباد على أساسها

لو عَذَّبَ اللهُ جميع خلقه لم يكن ظالماً لهم ، لأنهم عبيده وملكه ، والمالك يتصرف في ملكه كيف يشاء .

ولكن الحق تبارك وتعالى يحاكم عباده محاكمة عادلة ، لم تشهد البشرية لها مثيلاً من قبل ، وقد بين لنا ربنا في كثير من النصوص جملة القواعد التي تقوم عليها المحاكمة والمحاسبة في ذلك اليوم .

وسنذكر من ذلك ما ظهر لنا من تلك القواعد .

١- العدل الثام الذي لا يشوبه ظلم

يُوفَى الحق عز وجل - عباده في يوم القيامة أجورهم كاملة غير منقوصة ، ولا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل ﴿ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (١) .

وقال لقمان في وصيته لابنه معرفاً إياه بعدل الله ﴿ يَبْنِيْ اِنَّهَا اِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ اَوْ فِي السَّمَوَاتِ اَوْ فِي الْاَرْضِ يَاتِ بِهَا اللهُ اِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ (٢) .

(١) سورة البقرة : ٢٨١ .

(٢) سورة لقمان : ١٦ .

وقال الحق في موضع آخر : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ (١) ، وقال : ﴿ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ (٢) . وقال : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ (٣) .

وقال تعالى : ﴿ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ (٤) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٤) فقد أخبر الحق تبارك وتعالى في هذه النصوص أنه يُوفي كل عبد عمله ، وأنه لا يضيع منه ، ولا ينقص منه مقدار الذرة ، وهي الهباءة التي ترى في أشعة الشمس إذا دخلت من الطاق ، ولا مقدار الفتيل ولا النقيير ، والفتيل هو الخيط الذي يكون في شق النواة ، والنقيير : النقرة الصغيرة التي تكون في ظهر النواة .

٢- لا يؤخذ أحد بحجره غيره

قاعدة الحساب والجزاء التي تمثل قمة العدل ومنتهاه أن الله يجازي العباد بأعمالهم ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، ولا يحمل الحق تبارك وتعالى أحداً وزر غيره ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ (٥) . وهذا هو العدل الذي لا عدل فوقه ، فالله يقطف ثمار هدايته ، والضال ضلاله على نفسه ، ﴿ مَنْ أَهْتَدَىٰ فَأِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَأِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ (٦) .

(١) سورة النساء : ٤٠ .

(٢) سورة النساء : ٧٧ .

(٣) سورة النساء : ١٢٤ .

(٤) سورة الزلزال : ٨-٧ .

(٥) سورة الأنعام : ١٦٤ .

(٦) سورة الإسراء : ١٥ .

وهذه القاعدة العظيمة إحدى الشرائع التي اتفقت الرسالات السماوية على تقريرها ، قال تعالى : ﴿ أَمْ لَمْ يُبَيِّنْ بَمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ الْآتِرُ وَأَزْرَةٌ وَرِزْرٌ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنْ سَعْبَهُ سَوْفَ يَرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ .

يقول القرطبي في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٦﴾ 》 ؛ « أي لا تحمل حاملة ثقل أخرى ، لا تؤخذ نفس بذنوب غيرها ، بل كل نفس مأخوذة بجرمها ومعاقبة بإثمها ، وأصل الوزر الثقل ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٣٧﴾ 》 ، وهو هنا الذنب ، . . . والآية نزلت في الوليد بن المغيرة ، كان يقول : اتبعوا سبيلي أهل أوزاركم ، ذكره ابن عباس ، وقيل : إنها نزلت ردا على العرب في الجاهلية من مؤاخذه الرجل بأبيه وابنه ، وبجريمة حليفه « (٤) .

الذين يجمعون أثقالاً مع أثقالهم

قد يعارض بعض أهل العلم هذا الذي ذكرناه من أن الإنسان لا يحمل شيئاً من أوزار الآخرين بمثل قوله تعالى : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴿٥٠﴾ 》 وقوله : ﴿ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴿٦١﴾ 》 .

وهذا الذي ذكروه موافق لما ذكرناه من النصوص ، وليس بمعارض لها ،

(١) سورة النجم : ٣٦ - ٤١ .

(٢) سورة الأنعام : ١٦٤ ؛

(٣) سورة الشرح : ٢ .

(٤) تفسير القرطبي : (١٥٧/٤) .

(٥) سورة العنكبوت : ١٣ .

(٦) سورة النحل : ٢٥ .

فإن هذه النصوص تدلُّ على أن الإنسان يتحمل إثم ما ارتكب من ذنوب ، وإثم الذين أضلهم بقوله وفعله ، كما أن دعاة الهدى يتألون أجر ما عملوه ، ومثل أجر من اهتدى بهديهم ، واستفاد بعلمهم ، فإضلال هؤلاء لغيرهم هو فعل لهم يعاقبون عليه^(١) .

٣- اطلاع العباد على ما قدموه من أعمال

من إعذار الله خلقه ، وعدله في عباده أن يطلعهم على ما قدموه من صالح أعمالهم وطالحها ، حتى يحكموا على أنفسهم ، فلا يكون لهم بعد ذلك عذر .

قال تعالى : ﴿ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾^(٢) ، وقال : ﴿ يَوْمَ يُحَدِّثُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ﴾^(٣) ، وقال : ﴿ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾^(٤) . وقال : ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾^(٥) .

وإطلاع العباد على ما قدموه يكون بإعطائهم صحائف أعمالهم . وقراءتهم لها ، فقد أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أنه وكل بكل واحد منا ملكين يسجلان عليه صالح أعماله وطالحها ، فإذا مات ختم على كتابه ، فإذا كان يوم القيامة أعطى العبد كتابه ، وقيل له : اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا .

(١) توسعنا في بحث هذه المسألة في كتابنا « مقاصد المكلفين » .

(٢) سورة المائدة : ١٠٥ .

(٣) سورة آل عمران : ٣٠ .

(٤) سورة الانفطار : ٥ .

(٥) سورة الكهف : ٤٩ .

قال تعالى : ﴿ وَكَلَّ إِنْسَانٌ أَلْزَمْنَهُ طَبْعَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ﴾ (١٣) أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿ (١) .

وهو كتاب شامل لجميع الأعمال كبيرها وصغيرها ﴿ وَوَضَعَ الْكِتَابَ فِئْتَرَىٰ الْمُجْرِمِينَ مَشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُتَوَلَّنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ (٢) .

٤- مضاعفة الحسنات دون السيئات

ومن رحمته أن يضاعف أجر الأعمال الصالحة ﴿ إِنْ تَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضْعَفْ لَكُمُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ (٣) .

وأقل ما تضاعف به الحسنة عشرة أضعاف ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مِثَالِهَا ﴾ (٤) . أما السيئة فلا تجزى إلا مثلها ﴿ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا ﴾ (٥) . وهذا مقتضى عدله تبارك وتعالى .

وقد روى الحاكم في مستدركه ، وأحمد في مسنده بإسناد حسن عن أبي ذر رضي الله عنه قال : حدثنا الصادق المصدوق فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى أنه قال : « الحسنة بعشر أمثالها أو أزيد . والسيئة واحدة أو أغفرها ، ولو لقيتني بقراب الأرض خطايا ما لم تشرك بي ، لقيتكم بقرابها مغفرة » (٦) .

(١) سورة الإسراء : ١٣ .

(٢) سورة الكهف : ٤٩ .

(٣) سورة التغابن : ١٧ .

(٤) سورة الأنعام : ١٦٠ .

(٥) سورة الأنعام : ١٦٠ .

(٦) سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ورقم الحديث : ١٢٨ .

ومن الأعمال التي أخبر الرسول ﷺ أنها تضاعف عشرة أضعاف قراءة القرآن ، ففي الحديث الذي يرويه الترمذي والدارمي بإسناد صحيح عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « من قرأ حرفاً من كتاب الله ، فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها . لا أقول : (الم) حرف . ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح . غريب إسناده^(١) .

وأخبرنا رسولنا صلوات الله وسلامه عليه أيضاً أن الذكر يضاعف عشرة أضعاف ، ففي السنن للترمذي والنسائي وأبي داود عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « خصلتان - أو خلتان لا يحصيها رجل مسلم إلا دخل الجنة ، وهما يسيرٌ ، ومن يعمل بهما قليل : يسبح الله في دُبُر كل صلاة عشراً ، ويحمده عشراً ، ويكبره عشراً ، فلقد رأيت رسول الله ﷺ يعقدها بيده ، قال : فتلك خمسون ومائة باللسان ، وألف وخمسمائة في الميزان ، وإذا أخذت مضجعتك تسبحه وتكبره وتحمده مائة ، فتلك مائة باللسان ، وألف في الميزان ، فأياكم يعمل في اليوم والليل ألفين وخمسمائة سيئة ؟ قالوا : فكيف لا نحصيها ؟ قال : يأتي أحدكم الشيطان وهو في صلاته ، فيقول : اذكر كذا ، اذكر كذا ، حتى يفتل ، فلعله لا يفعل ، ويأتيه وهو في مضجعه ، فلا يزال ينومه حتى ينام ، أخرجه الترمذي والنسائي .

وفي رواية أبي داود بعد قوله : « في الميزان » الأولى ، قال : « ويكبر أربعاً وثلاثين إذا أخذ مضجعه ، ويحمد ثلاثاً وثلاثين ، ويسبح ثلاثاً وثلاثين ، فذلك مائة باللسان ، وألف في الميزان ، فلقد رأيت رسول الله ﷺ يعقدها بيده . قالوا : يا رسول الله ، كيف هما يسيرٌ ، ومن يعمل بهما قليل ؟ قال : يأتي أحدكم

(١) مشكاة المصابيح : (١/٦٦١) . رقم الحديث ٢١٣٧ .

الشیطان فی منامه فینومه قبل أن یقله ، ویأتیه فی صلاته فیدکره حاجته قبل أن یقلها . (١) .

وحدثنا رسولنا ﷺ فی حدیث الإسراء الذی یرویه البخاری وغیره تردده ﷺ بین ربه وموسى ، حیث کان یشیر علیه موسى فی کل مرة أن یرجع إلى ربه ، فیسأله أن یخفف عنه من الصلاة ، حتی أصبحت خمسا بعد أن كانت خمسين . قال فی ختام ذلك : « قال الجبار تبارک وتعالی : إنه لا یدل القول ، كما فرضت علیك فی أم الكتاب ، فکل حسنة بعشر أمثالها ، فهي خمسون فی أم الكتاب ، وهي خمس علیك . فرجع إلى موسى . فقال : کیف فعلت ؟ قال : خفت عنا ، أعطانا بكل حسنة عشر أمثالها . »

وقد یضاعفها أكثر من ذلك ، وقد تصل المضاعفة إلى سبعائة ضعف ، وأكثر من ذلك ، ومن ذلك أجر المنفق فی سبیل الله ، قال تعالی : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَنَابِلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ ﴾ (٢) قال ابن کثیر : هذا فضل ضربه الله لتضعیف الثواب لمن أنفق فی سبيله وابتغاء مرضاته ، وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعائة ضعف . فقال : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (٣) قال سعید بن جبیر : « یعنی فی طاعة الله » . وقال مکحول : یعنی به الانفاق فی الجهاد من رباط الخیل واعداد السلاح وغیر ذلك . وعن ابن عباس : الجهاد والحج یضعف الدرهم فیها إلى سبعائة ضعف (٤) .

وأورد ابن کثیر عند تفسیر هذه الآية الحدیث الذی یرویه مسلم والنسائي

(١) جامع الأصول : (٤/٣٧٢) . رقم الحدیث : ٢٤١٨ .

(٢) سورة البقرة : ٢٦١ .

(٣) سورة البقرة : ٢٦١ .

(٤) تفسیر ابن کثیر : (١/٥٦١) .

وأحمد عن عبدالله بن مسعود أن رجلا تصدق بناقة مخطومة في سبيل الله ، فقال رسول الله ﷺ : « لتأتين يوم القيامة بسبعمائة مخطومة » هذا لفظ أحمد والنسائي . ولفظ مسلم : جاء رجل بناقة مخطومة ، فقال : يا رسول الله . هذه في سبيل الله ، فقال : « لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة » (١) .

ومن الأعمال التي تضاعف أضعافا لا تدخل تحت حصر ، ولا يحصيها إلا الذي يجزي بها : الصوم ، ففي الحديث الذي يرويه البخاري ومسلم وأحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ ، قال : « كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، قال الله تعالى : « إلا الصوم فإنه لي : وأنا أجزي به » (٢) .

والسر في كون الصائم يعطى من غير تقدير ، أن الصوم من الصبر ، والصابرون يوفون أجورهم بغير حساب ، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٣) ، قال القرطبي : وقال أهل العلم : كل أجر يكال كيلا ، ويوزن وزنا إلا الصوم ، فإنه يحشى حشا ويغرف غرفا (٤) .

ومن الصبر : الصبر على فجاجع الدنيا وأحزانها وكرها التي يبتلي الله بها عباده ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٩﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٦٠﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ (٥) . وعندما يرى أهل العافية عظم أجر الصابرين يتمنون أن تكون جلودهم قرضت

(١) تفسير ابن كثير : (٥٦٢/١) .

(٢) مشكاة المصابيح : (٦١٣/١) ، ورقمه : ١٩٥٩ .

(٣) سورة الزمر : ١٠ .

(٤) تفسير القرطبي : (٢٤٠/١٥) .

(٥) سورة البقرة : ١٥٥ - ١٥٧ .

بالمقاريض لينالوا أجر الصابرين ، ففي سنن الترمذي عن جابر ، ومعجم الطبراني عن ابن عباس بإسناد حسن أن رسول الله ﷺ قال : « لَيُؤَدَّنْ أَهْلُ الْعَافِيَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، أَنْ جَلُودَهُمْ قُرِضَتْ بِالْمَقَارِيضِ ، مِمَّا يَرُونَ مِنْ ثَوَابِ أَهْلِ الْبِلَاءِ » (١) .

ومن فضل الله تبارك وتعالى أن المؤمن الذي يهيم بفعل الحسنة ، ولكنه لا يفعلها تكتب له حسنة تامة ، والذي يهيم بفعل السيئة ، ثم تدركه مخافة الله ، فيتركها تكتب له حسنة تامة ، ففي صحيح البخاري ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل ، قال : إن الله كتب الحسنات والسيئات ، ثم بين ذلك ، فمن همَّ بحسنة فلم يعملها ، كتبها الله له عنده حسنة كاملة ، فإن هو همَّ بها فعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف ، إلى أضعاف كثيرة ، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة ، فإن هو همَّ بها ، فعملها ، كتبها الله له سيئة واحدة » (٢) .

تبديل السيئات حسنات

وتبلغ رحمة الله بعباده وفضله عليهم أن يبذل سيئاتهم حسنات ، ففي الحديث الذي يرويه مسلم في صحيحه عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : « إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولا الجنة ، وآخر أهل النار خروجا منها . رجل يؤتى به يوم القيامة . فيقال : اعرضوا عليه صغار ذنوبه ، فيقال : عملت يوم كذا وكذا ، وعملت يوم كذا وكذا ، كذا وكذا . »

فيقول نعم : لا يستطيع أن ينكر . وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه .

(١) صحيح الجامع الصغير : (١١١/٥) ، ورقم الحديث : ٥٣٦٠ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، باب من هم بحسنة أو سيئة ، فتح الباري (١١/٣٢٣) .

فيقال له : فإن لك مكان كل سيئة حسنة .
 فيقول : رب ، عملت أشياء لا أراها ها هنا .
 فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه^(١) .

٥- إقامَةُ الشُّهُودِ عَلَى الْكُفْرَةِ وَالْمَنَافِقِينَ

أعظم الشهداء في يوم المعاد على العباد هو ربهم وخالقهم وفاطرم ، الذي لا تخفى عليه خافية من أحوالهم ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾^(٢) ، وقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴾^(٣) .

ولكن الله يجب الأعداء إلى خلقه ، فيبعث من مخلوقاته شهداء على المكذبين الجاحدين حتى لا يكون لهم عذر ، وقد أشارت أكثر من آية إلى الشهداء الذين يشهدون على العباد ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدَاءُ ﴾^(٤) ، وقوله تعالى : ﴿ وَجَاءَءَ بِالنَّبِيِّئِنَ وَالشَّهَدَاءِ ﴾^(٥) .

وأول من يشهد على الأمم رسلها ، فيشهد كل رسول على أمته بالبلاغ ، ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾^(٦) ، ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ ﴾^(٧) ،

(١) صحيح مسلم : (١٧٧/١) . ورقم الحديث : ١٩٠ .

(٢) سورة يونس : ٦١ .

(٣) سورة النساء : ٦٦ .

(٤) سورة غافر : ٥١ .

(٥) سورة الزمر : ٦٩ .

(٦) سورة النساء : ٤١ .

(٧) سورة النحل : ٨٩ .

وقوله : ﴿ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ هم الرسل ، لأن كل أمة رسولا منها ، كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ وَتَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ (٢) .

وكما يشهدون على أهمهم بالبلاغ يشهدون عليهم بالتكذيب ، ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ ﴾ (٣) ، وقال : ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٤) فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين ﴿ (٤) قال ابن كثير في شرح الآية الأولى : « هذا إخبار عما يخاطب الله به المرسلين يوم القيامة عما أجيبوا به من أهمهم الذين أرسلوا إليهم ، . . . وقول الرسل : (لا علم لنا) قال مجاهد والحسن البصري والسدي : إنما قالوا ذلك من هول ذلك اليوم . . . وقال ابن عباس : لا علم لنا إلا علم أنت أعلم به منا ، رواه ابن جرير ثم اختاره ، ولا شك أنه قول حسن ، وهو من باب التأدب مع الله عز وجل ، أي لا علم لنا بالنسبة إلى علمك المحيط بكل شيء ، فنحن وإن كنا أجبنا وعرفنا ما أجبنا ، ولكن منهم من كنا إنما نطلع على ظاهره لا علم لنا بباطنه ، وأنت العليم بكل شيء المطلع على كل شيء ، فعلمنا بالنسبة إلى علمك كلا شيء » (٥) .

ثم إن الأمم تكذب رسلها ، وتقول كل أمة ما جاءنا من نذير ، فتأتي هذه الأمة : أمة محمد ﷺ وتشهد للرسل بالبلاغ ، كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ

(١) سورة التوبة : ١٢٨ .

(٢) سورة القصص : ٧٥ .

(٣) سورة المائدة : ١٠٩ .

(٤) سورة الأعراف : ٦-٧ .

(٥) تفسير ابن كثير : (٦٧٦/٢) .

جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴿١﴾ .

وقد أورد البخاري في صحيحه في كتاب التفسير الحديث الذي رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يدعى نوح يوم القيامة ، فيقول : لبيك وسعديك يا رب ، فيقول : هل بلغت ؟ فيقول : نعم . فيقال لأمته : هل بلغكم ؟ فيقولون : ما أتانا من نذير . فيقول : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته . فيشهدون أنه قد بلغ ، ويكون الرسول عليكم شهيدا ، فذلك قوله جل ذكره : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (٢) (٣) .

وقد أفاد ابن حجر أنه قد جاء الحديث عند أحمد والنسائي وابن ماجه بلفظ : « يجيء النبي يوم القيامة ومعه الرجل ، ويجيء النبي ومعه الرجلان ، ويجيء النبي ومعه أكثر من ذلك . قال : فيقال لهم : أبلغكم هذا ؟ فيقولون : لا ، فيقال للنبي : أبلغتهم ؟ فيقول : نعم ، فيقال له : من يشهد لك ؟ ... » الحديث . وذكر ابن حجر أيضاً أن في بعض روايات الحديث زيادة : « فيقال : ما علمكم ؟ فيقولون : أخبرنا نبينا أن الرسل قد بلغوا فصدّقناه » (٤) .

ومن الأَشهاد الأرض والأيام والليالي ، تشهد بما عمل فيها وعليها ، ويشهد المال على صاحبه ، وقد عقد القرطبي في تذكرته لهذا الموضوع بابا ، وذكر فيه حديث الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال قرأ رسول الله ﷺ هذه

(١) سورة البقرة : ١٤٣ .

(٢) سورة البقرة : ١٤٣ .

(٣) صحيح البخاري ، (١٣) كتاب التفسير : (١٧١/٨) .

(٤) فتح الباري : (١٧٢/٨) .

الآية ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾^(١) . قال : أتدرون ما أخبرها ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : فإن أخبرها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها ، تقول : عمل يوم كذا ، كذا وكذا فهذه أخبارها » .

قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح غريب .

ويشهد على العبد أيضا ملائكة الرحمن الذين كانوا يسجلون عليه صالح أعماله وطالحها ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾^(٢) ، والسائق والشهيد الملكان اللذان كانا موكلين بتلك النفس .

وتشهد الملائكة على العباد بما كانوا يعملون ، ﴿ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾^(٣) فإذا لُجَّ العبد في الخصومة ، وكذَّب ربه ، وكذب الشهود الذين شهدوا عليه ، أقام الله عليه شاهدا منه ، فتشهد على المرء أعضاؤه ، وقد مضى بيان هذا .

(١) سورة الزلزال : ٤ .

(٢) سورة ق : ٢١ .

(٣) سورة هود : ١٨ .

المبحث الرابع ما يسأل عنه العباد

يسأل العباد عن الإله الذي كانوا يعبدونه ، وعن اجابتهم للمرسلين ، وقد بينا ذلك فيما مضى .

ويسألون عن أعمالهم التي عملوها ، وعما تمتعوا به من النعيم في الحياة الدنيا ، كما يسألون عن عهودهم ومواثيقهم ، وعن أسماهم وأبصارهم وأفئدتهم ، وهذا ما سنبينه في هذا المبحث .

١- الكفر والشرك

أعظم ما يسأل عنه العباد هو كفرهم وشركهم ، فيسألهم عن الشركاء والأنداد الذين كانوا يعبدونهم من دون الله كما قال تعالى : ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾ (١) من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرونكم (١) ، ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ (٢) .

ويسألون عن عبادتهم لغير الله من تقديم القرابين للآلهة التي كانوا يعبدونها ، ونحر الذبائح باسمها ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتَسْعَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾ (٣) .

(١) سورة الشعراء : ٩٢ - ٩٣ .

(٢) سورة القصص : ٦٢ .

(٣) سورة النحل : ٥٦ .

ويسألون عن تكذيبهم للرسول ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ .

٢- ما عمله في دنياه

يسأل المرء في يوم القيامة عن جميع أعماله التي عملها في الحياة الدنيا ، كما قال تعالى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْطَلْنَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ﴿١﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ . وقال ﴿ فَلَنَسْطَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْطَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ﴿٣﴾ ، وفي سنن الترمذي عن أبي بَرزَةَ الأسلمي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا تزول قدما عبد يوم القيامة ، حتى يسأل عن أربع : عن عمره فيم أفناه ، وعن علمه ماذا عمل به ؟ وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ؟ وعن جسمه فيما أبلاه ؟ » ﴿٤﴾ .

وفي سنن الترمذي أيضا عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه ، حتى يسأل عن خمس : عن عمره فيم أفناه ؟ وعن شبابه فيم أبلاه ؟ وعن ماله من أين اكتسبه ، وفيم أنفقه ؟ وماذا عمل فيم علم » ﴿٥﴾ .

والذي يتأمل في مثل هذا الحديث يعلم السر في دعوة الرسول ﷺ المسلم إلى

(١) سورة القصص : ٦٥ - ٦٦ .

(٢) سورة الحجر : ٩٢ .

(٣) سورة الأعراف : ٦ .

(٤) جامع الأصول : (٤٣٦/١٠) ، ورقمه : ٧٩٦٩ . وقال المحقق : قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح ، وكذا رمز له الشيخ ناصر بالصحة في صحيح الجامع : (١٤٨/٦) ، ورقمه : ٧١٧٧ .

(٥) جامع الأصول : (٤٣٧/١٠) ، ورقمه : ٧٩٧٠ ، وهو حديث حسن كما قال محقق جامع الأصول . وقد حسنه الشيخ ناصر في صحيح الجامع : (١٤٨/٦) ، ورقمه (٧١٧٦) .

التخفف من المال ، فكلما كثر مال العبد كثر حسابه وطال ، وكلما قلَّ ماله خفَّ حسابه وأسرع به إلى الجنة ، وقد أخبرنا الرسول ﷺ أن فقراء المهاجرين يسبقون أغنياءهم إلى الجنة بأربعين سنة ، ففي صحيح مسلم عن أبي عبدالرحمن الحبليِّ قال : جاء ثلاثة نفر إلى عبدالله بن عمرو بن العاص ، وأنا عنده ، فقالوا : يا أبا محمد ، إنا والله ، ما نقدر على شيء ، لا نفقة ، ولا دابة ، ولا متاع . فقال : ما شئتم إن شئتم رجعتم إلينا فأعطيناكم ما يسر الله لكم . وإن شئتم ذكرنا أمركم للسلطان . وإن شئتم صبرتم . فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء ، يوم القيامة إلى الجنة بأربعين خريفاً » (١) .

٣- النعيم الذي يتمتع به

يسأل الله عباده في يوم القيامة عن النعيم الذي خولهم إياه في الدنيا ، كما قال : ﴿ تَمَّ لَتُسَلَّنَ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ (٢) .

يعني بالنعيم شبع البطون ، وبارد الماء ، وظلال المساكن ، واعتدال الخلق ، ولذة النوم ، وقال سعيد بن جبير : حتى عن شربة عسل . وقال مجاهد : عن كل لذة من لذات الدنيا . وقال الحسن البصري : من النعيم الغداء والعشاء . وقال أبو قلابة : من النعيم أكل السمن والعسل بالخبز النقي . وعن ابن عباس : النعيم صحة الأبدان والأسماع والأبصار (٣) .

وهذا الذي فسروها به من باب التنوع في التفسير ، فإن أصناف النعيم كثيرة

(١) صحيح مسلم : (٢٢٨٥/٤) . ورقمه ٢٩٧٩ .

(٢) سورة التكاثر : ٨ .

(٣) تفسير ابن كثير : ٣٦٤/٧ .

لا تعد ولا تحصى ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾^(١) ، وبعض أنواع النعيم من الضروريات وبعضها من الكماليات ، والناس يتفاوتون في ذلك فيما بينهم ، ويوجد في عصر ما لا يجده أهل عصور أخرى ، وفي بلد ما لا يجده أهل بلاد أخرى ، وكل ذلك يسأل عنه العباد .

روى الترمذي بإسناده عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أول ما يسأل العبد عنه يوم القيامة من النعيم أن يقال له : ألم نصح لك جسمك ؟ ونُرُوكُ من الماء البارد »^(٢) .

وبعض الناس لا يستشعر النعم العظيمة التي وهب الله إياها ، فلا يدرك النعمة التي في شربة الماء ، ولقمة الطعام ، وفيها وهب الله من مسكن وزوجه وأولاد ، ويظن أن النعم تتمثل في القصور والبساتين والمراكب فحسب ، فقد سأل رجل عبد الله بن عمرو بن العاص فقال : ألسنا من فقراء المهاجرين ؟ فقال له عبد الله : ألك امرأة تأوي إليها ؟ قال : نعم . قال : ألك مسكن تسكنه ؟ قال : نعم . قال : فأنت من الأغنياء . قال فإن لي خادما . قال : فأنت من الملوك^(٣) .

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله ﷺ : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ »^(٤) ، ومعنى هذا أنهم مقصرون في شكر هاتين النعمتين ، لا يقومون بواجبهما ، ومن لا يقوم بحق ما وجب عليه فهو مغبون .

(١) سورة إبراهيم : ٣٤ .

(٢) مشكاة المصابيح : (٦٥٦/٢) ورقمه : (٥١٩٦) ، وقال محقق المشكاة : إسناده صحيح .

(٣) صحيح مسلم : (٢٢٨٥/٤) ورقم الحديث : ٢٩٧٩ .

(٤) مشكاة المصابيح : (٦٤٨/٢) ورقمه : ٥١٥٥ .

وفي مسند أحمد أن رسول الله ﷺ قال : « لا بأس بالغنى لمن اتقى الله عز وجل ، والصحة لمن اتقى الله خيراً من الغنى ، وطيب النفس من النعيم » (١) .

وفي بعض الأحاديث النبوية بيان من الرسول ﷺ عن صورة من صور السؤال عن النعيم الذي يواجهه الله به عباده في ذلك اليوم ، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « يلقى (الرب) العبد فيقول : أي فل (٢) ، ألم أكرمك ، وأسودك ، وأزوجك ، وأسخر لك الخيل والإبل ، وأدرك ترأس وتربع ؟ فيقول : بلى . قال : فيقول : أفظنت أنك ملاقي ؟ قال : فيقول : لا . فيقول : فإنني أنساك كما نسيتني .

ثم يلقى الثاني فيقول : أي فل ، ألم أكرمك ، وأسودك ، وأزوجك ، وأسخر لك الخيل والإبل ، وأدرك ترأس وتربع ؟ فيقول : بلى . أي رب ، فيقول : أفظنت أنك ملاقي ؟ فيقول : لا . فيقول : فإنني أنساك كما نسيتني .

ثم يلقى الثالث ، فيقول له مثل ذلك . فيقول : يا رب آمنت بك وبكتابك وبرسلك وصليت وصمت وتصدقت ، ويشني بخير ما استطاع . فيقول : ههنا إذن (٣) .

قال : ثم يقال له : الآن نبعث عليك شاهداً عليك ، ويتفكر في نفسه : من ذا يشهد علي ؟ فيختم الله على فيه . ويقال لفخذه ولحمه وعظامه : انطقي فتنتطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله . وذلك ليعذر من نفسه .
وذلك المنافق الذي يسخط الله عليه (٤) .

(١) مشكاة المصابيح ، ٦٧٦/٢ ، ورقمه : ٥٢٩٠ ، وعزاه المحقق إلى ابن ماجه ، وقال : إسناده صحيح .

(٢) فل : أي يا فلان .

(٣) معناه قف : ههنا إذن .

(٤) رواه مسلم في صحيحه : (٢٢٨٠/٤) ، ورقمه : ٢٩٦٨ .

والسؤال عن النعيم سؤال عن شكر العبد لما أنعم الله به عليه ، فإذا شكر فقد أدى حق النعمة ، وإن أبى وكفر ، أغضب عليه الله ، ففي صحيح مسلم عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة ، فيحمده عليها ، أو يشرب الشربة فيحمده عليها » (١) .

٤ - العهود والمواثيق

يسأل الله عباده عما عاهدوه عليه ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ
الْأُدْبِرَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴾ (٢) ، وكل عهد مشروع بين العباد فإن الله سائل العبد
عن الوفاء به ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾ (٣) .

٥ - السمع والبصر والفؤاد

يسأل الله العباد عن جميع ما يقولونه ، ولذلك حذرهم من القول بلا علم ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ
مَسْئُولًا ﴾ (٤) قال قتادة : « لاتقل رأيت ولم تر ، وسمعت ولم تسمع ، وعلمت ولم
تعلم ، فإن الله سائلك عن ذلك كله » (٥) .

قال ابن كثير : « ومضمون ماذكروه في الآية أن الله نهى عن القول بغير

(١) مشكاة المصابيح : (٤٤٦/٢) ، ورقمه : ٤٢٠٠ .

(٢) سورة الأحزاب : ١٥ .

(٣) سورة الإسراء : ٣٤ .

(٤) سورة الإسراء : ٣٦ .

(٥) تفسير ابن كثير : (٣٠٨/٤) .

علم ، بل بالظن ، الذي هو التوهم والخيال . كما قال تعالى : ﴿ أَجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ
الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾^(١) . وفي الحديث : « إياكم والظن فإن الظن أكذب
الحديث » ، وفي سنن أبي داود بشئ مطية الرجل « زعموا » وفي الحديث الآخر :
« إن أفرى الفرى أن يري الرجل عينيه ما لم تريا » وفي الصحيح : « من تحلم حلما
كُلف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين وليس بفاعل »^(٢) .

(١) سورة الحجرات : ١٢ .
(٢) تفسير ابن كثير : (٤/٣٠٨) .

المَبْحَثُ الخَامِسُ أَوَّلُ مَا يَحَاسِبُ عَلَيْهِ الْعَبْدُ مِنْ أَعْمَالِهِ

أول ما يحاسب عليه العبد من حقوق الله تبارك وتعالى الصلاة ، فإن صلحت أفلح ونجح وإلا خاب وخسر ، ففي سنن الترمذي والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته ، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح ، وإن فسدت فقد خاب وخسر ، فإن انتقص من فريضته شيئاً . قال الرب تبارك وتعالى : انظروا هل لعبدي من تطوع فيكمل بها ما انتقص من الفريضة ، ثم يكون سائر عمله على ذلك » (١) .

وفي سنن أبي داود عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إن أول ما يحاسب الناس به يوم القيامة من أعمالهم الصلاة ، قال : يقول ربنا - عز وجل - ملائكتنا : انظروا في صلاة عبدي ، أتمها أم نقصها ؟ فإن كانت تامةً كتبت له تامة ، وإن كان انتقص منها شيئاً ، قال : انظروا ، هل لعبدي من تطوع ، فإن كان له تطوع ، قال : أتموا لعبدي فريضته من تطوعه ، ثم تؤخذ الأعمال بعد ذلك » (٢) .

(١) جامع الأصول : (٤٣٤/١٠) ، ورقمه : ٧٩٦٤ ، وعزاه في صحيح الجامع إلى الترمذي والنسائي

وابن ماجة ، وصححه . صحيح الجامع : (١٨٤/٢) ورقمه : ٢٠١٦ .

(٢) جامع الأصول : (٤٣٥/١٠) ، ورقمه : ٧٩٦٥ ، وعزاه الشيخ ناصر في صحيح الجامع إلى أبي

داود وأحمد والنسائي والحاكم . وقال فيه : صحيح . صحيح الجامع : (٣٥٢/٢) ،

ورقمه : ٢٥٦٨ .

المبحث السادس أنواع الحساب وأمثله لهذه الأنواع

المطلب الأول أنواع الحساب

يتفاوت حساب العباد ، فبعض العباد يكون حسابهم عسيرا وهؤلاء هم الكفرة المجرمون الذين أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، وتمردوا على شرع الله ، وكذبوا الرسل ، وبعض عصاة الموحدين قد يطول حسابهم ويعسر بسبب كثرة الذنوب وعظمتها .

وبعض العباد يدخلون الجنة بغير حساب ، وهم فئة قليلة لا يجاوزون السبعين ألفا ، وهم الصفوة من هذه الأمة ، والقمم الشاخحة في الإيمان والتقوى والصلاح والجهاد ، وسيأتي ذكرهم وصفتهم عند الحديث عن أهل الجنة وبعض العباد يحاسبون حسابا يسيرا ، وهؤلاء لا يناقشون الحساب ، أي لا يدقق ، ولا يحقق معهم ، وإنما تعرض عليهم ذنوبهم ثم يتجاوز لهم عنها ، وهذا معنى قوله تبارك وتعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۖ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ (١) ، ففي صحيح البخاري ومسلم عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال : « ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك ، فقلت : يا رسول الله ، أليس قد قال الله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۖ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ (٢) ؟ فقال رسول

(١) سورة الانشقاق : ٧ - ٨ .

(٢) سورة الانشقاق : ٧ - ٨ .

الله ﷻ : « إنما ذلك العرض ، وليس أحد يناقش الحساب يوم القيامة إلا هلك » (١) .

قال النووي في شرحه للحديث : « معنى نوقش الحساب : استقصي عليه . قال القاضي : وقوله : « عذب » له معنيان : أحدهما : أن نفس المناقشة وعرض الذنوب والتوقيف عليها هو التعذيب لما فيه من التوبيخ . والثاني : أنه مفض إلى العذاب بالنار ويؤيده قوله في الرواية الأخرى : « هلك » مكان « عذب » هذا كلام القاضي .

قال النووي : وهذا الثاني هو الصحيح ، ومعناه أن التقصير غالب في العباد فمن استقصى عليه ، ولم يسامح هلك ، ودخل النار ، ولكن الله تعالى يعفو ويغفر ما دون الشرك لمن يشاء » (٢) .

ونقل ابن حجر عن القرطبي في معنى قوله : « إنما ذلك العرض » قال : « إن الحساب المذكور في الآية إنما هو أن تعرض أعمال المؤمن عليه حتى يعرف منه الله عليه في سترها عليه في الدنيا ، وفي عفوه عنها في الآخرة » (٣) .

والمراد بالعرض - كما هو ظاهر من هذه الأحاديث - عرض ذنوب المؤمنين عليهم ، كي يدركوا مدى نعمة الله عليهم في غفرانها لهم .

(١) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، باب من نوقش الحساب عذب ، فتح الباري : (٤٠٠/١١) ،

وصحيح مسلم : (٢٢٠٤/٤) ورقمه : ٢٨٧٦ ، واللفظ للبخاري .

(٢) النووي على مسلم : (٢٠٨/١٧) .

(٣) فتح الباري : (٤٠٢/١١) .

المطلب الثاني أمثلة هذه الأنواع

ورد في السنة النبوية مشاهد للمناقشة والعرض والمعاينة التي تكون من الله لعباده ، وسنسوق لكل واحد من هذه الأنواع الثلاثة مشهداً مما صح في السنة .

١ - مناقشة المرأتين :

روى مسلم والترمذي والنسائي عن شفي بن ماتع الأصبحي رحمه الله أنه دخل المدينة ، فإذا هو برجل قد اجتمع عليه الناس ، فقال : من هذا ؟ فقالوا : أبو هريرة ، فدنوت منه ، حتى قعدت بين يديه ، وهو يحدث الناس ، فلما سكت وخلا ، قلت له : أسألك بحق وحق ، لما حدثتني حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ عقلتة وعلمته ، فقال أبو هريرة : أفعل ، لأحدثك حديثاً حدثني رسول الله ﷺ ، عقلتة وعلمته ، ثم نشغ أبو هريرة نشغة ، فمكثنا قليلاً ، ثم أفاق ، فقال : لأحدثك حديثاً حدثني رسول الله ﷺ في هذا البيت ، ما معنا أحدٌ غيري وغيره ، ثم نشغ أبو هريرة نشغةً أخرى ، ثم أفاق ومسح عن وجهه ، وقال : أفعل ، لأحدثك حديثاً حدثني رسول الله ﷺ ، أنا وهو في هذا البيت ، ما معنا أحدٌ غيري وغيره ، ثم نشغ أبو هريرة نشغة شديدة ، ثم مال خائراً على وجهه ، فأسندته طويلاً ، ثم أفاق ، فقال :

حدثني رسول الله ﷺ : أن الله إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضي بينهم وكل أمة جاثية ، فأول من يدعو به رجل جمع القرآن ، ورجل قتل في سبيل الله ، ورجلٌ كثير المال ، فيقول الله للقاريء : ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي ؟ قال : بلى ، يا رب ، قال : فماذا عملت فيها علمت ؟ قال : كنت أقوم به آناء

الليل وآناء النهار ، فيقول الله له : كذبت ، وتقول له الملائكة : كذبت ، ويقول الله له : بل أردت أن يقال : فلان قارىء ، وقد قيل ذلك .

ويؤتى بصاحب المال فيقول الله : ألم أوسع عليك ، حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد ؟ قال : بلى ، يارب ، قال : فماذا عملت فيما آتيتك ؟ قال : كنت أصل الرحم ، وأتصدق ، فيقول الله له : كذبت ، وتقول له الملائكة : كذبت ، ويقول الله : بل أردت أن يقال : فلان جواد ، فقيل ذلك .

ثم يؤتى بالذي قُتل في سبيل الله ، فيقول الله : في ماذا قتلت ؟ فيقول : أمرت بالجهاد في سبيلك ، فقاتلت حتى قتلت ، فيقول الله له : كذبت ، وتقول له الملائكة : كذبت ، ويقول الله : بل أردت أن يقال : فلان جريء ، فقد قيل ذلك ، ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتي ، فقال : يا أبا هريرة ، أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة .

قال الوليد أبو عثمان المدائني : فأخبرني عقبه بن مسلم : أن شفياء هو الذي دخل على معاوية فأخبره بهذا .

قال أبو عثمان : وحدثني العلاء بن أبي حكيم : « أنه كان سيافاً لمعاوية ، فدخل عليه رجل ، فأخبره بهذا عن أبي هريرة ، فقال معاوية : قد فعل بهؤلاء هكذا ، فكيف بمن بقي من الناس ؟ ثم بكى معاوية بكاءً شديداً ، حتى ظننا أنه هالك ، وقلنا : قد جاء هذا الرجل بشر ، ثم أفاق معاوية ، ومسح عن وجهه ، وقال : صدق الله ورسوله ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾ ﴿١٥﴾ أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وبطل ما كانوا يعملون ﴿١٦﴾ . أخرجه الترمذي .

وفي رواية مسلم والنسائي عن سليمان بن يسار : قال : « تفرق الناس عن

(١) سورة هود : ١٥ - ١٦ .

أبي هريرة ، فقال له نائل أخو أهل الشام : أيها الشيخ حدثني حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ ؟ فقال : نعم سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه : رجل استشهد ، فأتي به ، فعرفه نعمه ، فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت ، فقال : كذبت ، ولكنك قاتلت لأن يقال : جريء ، فقد قيل ، ثم أمر به ، فسحب على وجهه ، حتى ألقي في النار . ورجل تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن ، فأوتي به ، فعرفه نعمة فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت فيك القرآن ، قال : كذبت ، ولكنك تعلمت العلم ليقال : عالم ، وقرأت القرآن ليقال : هو قارىء ، فقد قيل ، ثم أمر به ، فسحب على وجهه ، حتى ألقي في النار ، ورجل وسع الله عليه ، وأعطاه من أصناف المال كله ، فأتي به فعرفه بنعمه ، فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك ، قال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال : هو جواد ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي في النار .

٢ - عرض الرب ذنوب عبده عليه :

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الله يدني المؤمن ، فيضع عليه كنفه ، ويستره ، فيقول : أتعرف ذنب كذا ، أتعرف ذنب كذا ؟ فيقول : نعم أي رب . حتى إذا قرره بذنوبه ، ورأى في نفسه أنه هلك ، قال : سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ، فيعطى كتاب حسناته . وأما الكافرون والمنافقون فيقول الأشهاد : ﴿ هَتُّوْا الَّذِيْنَ كَذَّبُوا عَلَيَّ رَبِّيْهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِيْنَ ﴾ (١) (٢) .

(١) سورة هود : ١٨ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب المظالم ، باب قوله تعالى : ﴿ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِيْنَ ﴾ ، فتح الباري : (٩٦/٥) ، وصحيح مسلم : (٢١٢٠/٤) ، ورقمه : ٢٧٦٨ .

قال القرطبي في قوله : « يضع عليه كنفه » أي ستره ولطفه وإكرامه ، فيخاطب خطاب ملاطفة ، ويناجيه مناجاة المصافاة والمحادثة ، فيقول له : هل تعرف ؟ فيقول : رب أعرف ، فيقول الله ممتنا عليه ، ومظهراً فضله لديه : فإني قد سترتها عليك في الدنيا ، أي لم أفضحك بها فيها ، وأنا أغفرها لك اليوم^(١) .

٣ - معاتبه الرب عبده فيما وقع منه من تقصير

وقد حدثنا الرسول ﷺ عن معاتبه الرب لعبده يوم القيامة ، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى يقول يوم القيامة : يا ابن آدم ، مرضت فلم تعدني .

قال : يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟

قال : أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلم تعده ، أما علمت أنك لو عدته

لوجدتني عنده ؟

يا ابن آدم ، استطعمتك فلم تطعمني ؟

قال : يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟

قال : أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه ؟ أما علمت أنك لو

أطعمته لوجدت ذلك عندي ؟

يا ابن آدم ، استسقيتك فلم تسقني .

قال : يا رب ، كيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟

قال : استسقاك عبدي فلان فلم تسقه ، أما علمت أنك لو سقيته وجدت

ذلك عندي ؟^(٢) .

(١)، تذكرة القرطبي : ٢٦٣ .

(٢)، مشكاة المصابيح : (٤٨٦/١) ، ورقم الحديث : ١٥٢٨ .

المَبْحَثُ السَّابِعُ

إِبْتِءُ الْعِبَادِ كَتَبِهِمْ

في ختام مشهد الحساب يعطى كل عبد كتابه المشتمل على سجل كامل لأعماله التي عملها في الحياة الدنيا وتختلف الطريقة التي يؤق بها العباد كتبهم ، فأما المؤمن فإنه يؤق كتابه بيمينه من أمامه ، فيحاسب حساباً يسيراً ، وينقلب إلى أهله في الجنة مسروراً ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ ، وإذا اطلع المؤمن على ما تحويه صحيفته من التوحيد وصالح الأعمال سر واستبشر ، وأعلن هذا السرور ، ورفع به صوته ، ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَٰؤُلَاءِ مِمَّا كُتِبَ عَلَيَّ ﴾ ﴿١١﴾ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّةٍ ﴿١٢﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿١٣﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٤﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿١٥﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿١٦﴾ .

وأما الكافر والمنافق وأهل الضلال فإنهم يأتون كتبهم بشمالهم من وراء ظهورهم ، وعند ذلك يدعو الكافر بالويل والثبور ، وعظائم الأمور ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴾ ﴿١٧﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١٨﴾ وَيَصْلِي سَعِيرًا ﴿١٩﴾ . ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ ﴾ فَيَقُولُ يَلِيَّتَنِي لِمَ أُوتِيَ كِتَابِي ﴿٢٥﴾ وَلِمَ أُدْرِمَ حِسَابِي ﴿٢٦﴾

(١) سورة الانشقاق : ٧ - ٩ .

(٢) سورة الحاقة : ١٩ - ٢٤ .

(٣) سورة الانشقاق : ١٠ - ١٢ .

يَلْبِثَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ ﴿٧٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيهِ ﴿٧٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهِ ﴿٧٩﴾
خُدُّوهُ فَعُدُّوهُ ﴿٨٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلْوَهُ ﴿٨١﴾ (١).

وعندما يعطى العباد كتبهم يقال لهم : ﴿ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا
كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٢).

(١) سورة الحاقة : ٢٥ - ٣١ .

(٢) سورة الجاثية : ٢٩ .

المبحث الثامن تصوير القرطبي للمشهد الحساب

قال القرطبي مصورا مشهد الحساب : « فإذا بعث العباد من قبورهم إلى الموقف ، وقاموا فيه ما شاء الله ، حفاة عراة ، وجاء وقت الحساب الذي يريد الله أن يحاسبهم فيه ، أمر بالكتب التي كتبها الكرام الكاتبون بذكر أعمال الناس فأتوها ، فمنهم من يؤق كتابه بيمينه ، فأولئك هم السعداء ومنهم من يؤق كتابه بشماله أو وراء ظهره ، وهم الأشقياء ، فعند ذلك يقرأ كل كتاب به ، وأنشدوا :

مثل وقوفك يوم العرض عرياننا مستوحشا قلق الأحشاء حيراننا
والنار تلهب من غيط ومن حنق على العصاة ورب العرش غضباننا
اقرأ كتابك يا عبدي على مهل فهل ترى فيه حرفا غير ما كانا
لما قرأت ولم تنكر قراءته إقرار من عرف الأشياء عرفانا
نادى الجليل خذوه يا ملائكتي امضوا بعبد عصا للنار عطشاننا
المشركون غداً في النار يلتهبوا والمؤمنون بدار الخلد سكاننا

فتوهم نفسك يا أخي إذا تطايرت الكتب ، ونصبت الموازين ، وقد نوديت باسمك على رؤوس الخلائق : أين فلان بن فلان ؟ هلم إلى العرض على الله تعالى . وقد وكلت الملائكة بأخذك ، فقربتك إلى الله ، لا يمنعها اشتباه الأسماء باسمك واسم أبيك ، إذ عرفت أنك المراد بالدعاء إذا قرع النداء قلبك ، فعلمت أنك المطلوب ، فارتعدت فرائصك ، واضطربت جوارحك ، وتغير لونك ، وطار قلبك ، تخطى بك الصفوف إلى ربك للعرض عليه ، والوقوف بين يديه ، وقد

رفع الخلائق إليك أبصارهم ، وأنت في أيديهم ، وقد طار قلبك ، واشتد رعبك ،
لعلمك أين يراد بك .

فتوهم نفسك ، وأنت بين يدي ربك ، في يدك صحيفة مخبرة بعملك ، لا
تغادر بلية كتمتها ، ولا غبأة أسررتها ، وأنت تقرأ ما فيها بلسان كليل ، وقلب
منكسر ، والأهوال محدقة بك من بين يديك ومن خلفك ، فكم من بلية قد كنت
نسيتها ذكرها ! وكم من سيئة قد كنت أخفيتها قد أظهرها وأبداها ! وكم من عمل
ظننت أنه سلم لك وخلص فرده عليك في ذلك الموقف وأحبطه بعد أن كان أملك
فيه عظيماً ! فيا حسرة قلبك ، ويا أسفك على ما فرطت فيه من طاعة ربك .

فأما من أوتي كتابه بيمينه ، فعلم أنه من أهل الجنة ، فيقول : هاؤم اقرأوا
كتابية ، وذلك حين يأذن الله ، فيقرأ كتابه ، فإذا كان الرجل رأساً في الخير يدعو
إليه ، ويأمر به ، ويكثر تبعه عليه ، دعي باسمه واسم أبيه ، فيتقدم حتى إذا دنى
أخرج له كتاب أبيض ، في باطنه السيئات ، وفي ظاهره الحسنات ، فيبدأ
بالسيئات فيقروها فيشفق ويصفر وجهه ويتغير لونه ، فإذا بلغ آخر الكتاب ، وجد
فيه : هذه سيئاتك ، وقد غفرت لك ، فيفرح عند ذلك فرحاً شديداً ، ثم يقلب
كتابه ، فيقرأ حسناته ، فلا يزداد إلا فرحاً ، حتى إذا بلغ آخر الكتاب وجد فيه :
هذه حسناتك ، قد ضوعفت لك ، فيبيض وجهه ، ويوثق بتاج ، فيوضع على
رأسه ، ويكسى حلتين ، ويحلل كل مفصل فيه ، ويطول ستين ذراعاً ، وهي قامة
آدم . ويقال له : انطلق إلى أصحابك فبشرهم ، وأخبرهم أن لكل إنسان منهم
مثل هذا ، فإذا أدبر قال (١) : ﴿ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَةَ ﴾ ۝ ١٦ ۝ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ
حِسَابِيَةَ ۝ . قال الله تعالى : ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ ، أي مرضية ، قد
رضيها ، ﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ في السماء ، ﴿ قُطُوفُهَا ﴾ ثمارها وعناقيدها ﴿ دَانِيَةٌ ﴾

(١) الآيات التي استشهد بها المصنف في كلامه من سورة الحاقة : ١٩ - ٣٢ .

أدنت منهم . فيقول لأصحابه : هل تعرفوني ؟ فيقولون : قد غمرتك كرامة الله ، من أنت ؟ فيقول : أنا فلان بن فلان ، ليشر كل رجل منكم بمثل هذا ﴿ كَلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ أي قدمتم في أيام الدنيا .

وإذا كان الرجل رأسا في الشر يدعو إليه ، ويأمر به ، فيكثر تبعه عليه ، ونودي باسمه واسم أبيه ، فيتقدم إلى حسابه ، فيخرج له كتاب أسود ، بخط أسود ، في باطنه الحسنات ، وفي ظاهره السيئات ، فبدأ بالحسنات فيقرؤها ، ويظن أنه سينجو ، فإذا بلغ آخر الكتاب ، وجد فيه : هذه حسناتك ، وقد رُدَّت عليك ، فيسود وجهه ، ويعلوه الحزن ، ويقنط من الخير ، ثم يقلب كتابه ، فيقرأ سيئاته ، فلا يزداد إلا حزنا ، ولا يزداد وجهه إلا سوادا . فإذا بلغ آخر الكتاب ، وجد فيه : هذه سيئاتك ، وقد ضوعفت عليك ، أي يضاعف عليه العذاب ، ليس المعنى أنه يزداد عليه ما لم يعمل . قال فيعظم إلى النار ، وتزرق عيناه ، ويسود وجهه ، ويكسى سراويل القطران .

ويقال له : انطلق إلى أصحابك فأخبرهم أن لكل إنسان منهم مثل هذا ، فينطلق وهو يقول : ﴿ يَلْبِئْتَنِي لَرَأُوتَ كَتَبِيَّةٍ ﴿٢٥﴾ وَلَرَأُدْرِمَ حَسَابِيَّةٍ ﴿٢٦﴾ يَلْبِئْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ ﴾ يعني الموت ﴿ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ ﴾ تفسير ابن عباس رضي الله عنها : هلكت عني حجتي . قال الله تعالى : ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴾ أي اجعلوه يصلى الجحيم ﴿ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴾ الله أعلم بأي ذراع . قال الحسن وقال ابن عباس رضي الله عنهما : سبعون ذراعاً بذراع الملك . ﴿ فَاسْلُكُوهُ ﴾ قيل : يدخل عنقه فيها ، ثم يجربها ، ولو أن حلقة منها وضعت على جبل لذاب .

فينادي أصحابه فيقول : هل تعرفوني ؟ فيقولون : لا ، ولكن قد نرى ما

بك من الحزن . فمن أنت ؟ فيقول : أنا فلان بن فلان ، لكل إنسان منكم مثل هذا .

وأما من أوتي كتابه وراء ظهره ، تخلع كتفه اليسرى ، فيجعل يده خلفه ، فيأخذ بها كتابه . وقال مجاهد : يحول وجهه في موضع قفاه ، فيقرأ كتابه كذلك . فتوهم نفسك إن كنت من السعداء ، وقد خرجت على الخلائق مسرور الوجه ، قد حل بك الكمال والحسن والجمال ، كتابك في يمينك ، أخذ بضبعيك ملك ينادي على رؤوس الخلائق : هذا فلان بن فلان ، سعد سعادة لا يشقى بعدها أبدا . وأما إن كنت من أهل الشقاوة ، فيسود وجهك ، وتتخطى الخلائق كتابك في شمالك ، أو من وراء ظهره ، تنادي بالويل والثبور ، وملك أخذ بضبعيك ينادي على رؤوس الخلائق : ألا إن فلان بن فلان شقي شقاوة لا يسعد بعدها أبدا^(١) .

(١) تذكرة القرطبي : ٢٥٥ .

obeikandi.com

الفصل الحادي عشر

اقتصاص المظالم بين الخلق

يقتص الحكم العدل في يوم القيامة للمظلوم من ظالمه ، حتى لا يبقى لأحد عند أحد مظلمة ، حتى الحيوان يقتص لبعضه من بعض ، فإذا انططحت شاتان إحداهما جلحاء لا قرون لها ، والأخرى ذات قرون ، فإنه يقتص لتلك من هذه ، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لتؤذن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة ، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء » (١) .

والذي يعتدي على غيره بالضرب ، يقتص منه بالضرب في يوم القيامة ، ففي الحديث الصحيح الذي يرويه البخاري في « الأدب المفرد » ، والبيهقي في السنن ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ ضَرَبَ بِسُوطِ ظَلَمٍ ، اِقْتَصَّ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » (٢) .

وفي معجم الطبراني الكبير عن عمار ، قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ ضَرَبَ مَمْلُوكَهُ ظَلَمًا ، أُقِيدَ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » وإسناده صحيح (٣) .

والذي يقذف مملوكه بالزنا يقام عليه الحد في يوم القيامة إن كان كاذبا فيأرمه به ، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال أبو القاسم ﷺ : « مَنْ قَذَفَ مَمْلُوكَهُ بِالزَّنَا يَاقُمُ عَلَيْهِ الْحَدَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ كَمَا قَالَ » (٤) .

(١) صحيح مسلم : (١٩٩٧/٤) ، ورقمه : (٢٥٨٢) .

(٢) صحيح الجامع الصغير : (٣١٩/٥) ، ورقمه : ٦٢٥٠ .

(٣) صحيح الجامع الصغير : (٣١٩/٥) ، ورقمه ٦٢٥٢ .

(٤) صحيح مسلم : (١٢٨٢/٣) ، ورقمه : ١٦٦٠ .

المطلب الأول كيف يكون الاقتصاص في يوم القيامة

إذا كان يوم القيامة كانت ثروة الإنسان ورأس ماله حسناته ، فإذا كانت عليه مظالم للعباد فإنهم يأخذون من حسناته بقدر ما ظلمهم ، فإن لم يكن له حسنات أو فنية حسناته ، فإنه يؤخذ من سيئاتهم فيطرح فوق ظهره .

ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء ، فليتحلل منه اليوم ، قبل أن لا يكون دينار ولا درهم ، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه » (١) .

وهذا الذي يأخذ الناس حسناته ، ثم يقذفون فوق ظهره بسيئاتهم هو المفلس ، كما سماه الرسول ﷺ ، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « أتدرون من المفلس ؟ » قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع . فقال : « إن المفلس من أمتي ، من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتي وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطي هذه من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإذا فنية حسناته ، قبل أن يقضي ما عليه ، أخذت من خطاياهم فطرحت عليه ، ثم طرح في النار » (٢) .

والمدين الذي مات ، وللناس في ذمته أموال يأخذ أصحاب الأموال من حسناته بمقدار ما لهم عنده ، ففي سنن ابن ماجه بإسناد صحيح عن ابن عمر

(١) صحيح البخاري ، كتاب المظالم ، باب من كانت له مظلمة عند الرجل ، فتح الباري : (١٠١/٥) .

(٢) صحيح مسلم : (١٩٩٧/٤) ، ورقمه : ٢٥٨١ .

رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من مات وعليه دينار أو درهم ، قضى من حسناته ، ليس ثم دينار ولا درهم » (١) .

وإذا كانت بين العباد مظالم متبادلة اقتص لبعضهم من بعض ، فإن تساوى ظلم كل واحد منها للآخر كان كفافاً لا له ولا عليه ، وإن بقي لبعضهم حقوق عند الآخرين أخذها .

ففي سنن الترمذي عن عائشة ، قالت : جاء رجل فقعد بين يدي الرسول ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، إن لي مملوكين يكذبونني ، ويخونني ، ويعصونني ، وأشتمهم وأضربهم ، فكيف أنا منهم ؟

فقال رسول الله ﷺ : « إذا كان يوم القيامة يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك ، وعقابك إياهم ، فإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم كان كفافاً لا لك ، ولا عليك . وإن كان عقابك إياهم دون ذنبهم كان فضلاً لك ، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم ، اقتص لهم منك الفضل » فتنحى الرجل ، وجعل يهتف ويبكي .

فقال له رسول الله ﷺ « أما تقرأ قوله تعالى : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكُنَّا بِبَنَى حَسِينٍ ﴾ (٢) (٣) .

ولما كان هذا شأن الظلم فحري بالعباد الذين يخافون ذلك اليوم أن يتركوه

(١) صحيح الجامع الصغير : (٥٣٧/٥) ، ورقم الحديث : ٦٤٣٢ .

(٢) سورة الأنبياء : ٤٧ .

(٣) مشكاة المصابيح : (٦٦/٣) ، ورقمه : ٥٥٦١ ، وأورده في صحيح الجامع : (٣٢٧/٦) ورقمه :

٧٨٩٥ ، وعزاه إلى أحمد والترمذي .

ويجتنبوه وقد أخبر الرسول ﷺ أن الظلم يكون ظلمات في يوم القيامة ، ففي صحيح البخاري ومسلم عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ قال : « الظلم ظلمات يوم القيامة » (١) .

وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبدالله أن رسول الله ﷺ قال : « اتقوا الظلم ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة » (٢) .

المطلب الثاني عظم شأن الدماء

من أعظم الأمور عند الله أن يسفك العباد بعضهم دم بعض في غير الطريق الذي شرعه الله تبارك وتعالى ، ففي الحديث الصحيح الذي يرويه الترمذي عن ابن مسعود ، عن النبي ﷺ قال : « يجيء الرجل آخذاً بيد الرجل ، فيقول : يا رب ، هذا قتلي : فيقول : لم قتله ؟

فيقول : قتله لتكون العزة لك .

فيقول : فإنها لي .

ويجيء الرجل آخذاً بيد الرجل ، فيقول : أي رب ، إن هذا قتلي .

فيقول الله : لم قتله ؟

فيقول : لتكون العزة لفلان .

فيقول : إنها ليست لفلان ، فيبوء بإثمه » (٣) .

(١) صحيح البخاري ، كتاب المظالم ، باب الظلم ظلمات يوم القيامة ، فتح الباري : (١٠٠/٥) ،

وصحيح مسلم : (١٩٦٩/٤) ، ورقمه : ٢٥٧٩ .

(٢) ، صحيح مسلم : (١٩٦٩/٤) ، ورقمه : ٢٥٧٨ .

(٣) ، صحيح الجامع الصغير : (٣٢٤/٦) . ورقم الحديث : ٧٨٨٥ .

وفي السنن للترمذي ، وأبي داود ، وابن ماجة ، عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله ﷺ : « يجيء المقتول بالقاتل يوم القيامة ، ناصيته ورأسه بيده ، وأوداجه تشخب دما ، فيقول : يا رب ، سل هذا فيم قتلني ؟ حتى يدنيه من العرش » (١) .

ولعظم أمر الدماء فإنها تكون أول شيء يقضى فيه بين العباد .

فقد روى البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء » (٢) . قال ابن حجر في شرحه للحديث : « وفي الحديث عظم أمر الدم ، فإن البداءة إنما تكون بالأهم ، والذنب يعظم بحسب عظم المفسدة وتفويت المصلحة ، وإعلام البنية الإنسانية غاية في ذلك » (٣) .

ولا تعارض بين هذا الحديث وحديث أن أول ما يحاسب عليه العبد الصلاة ، قال ابن حجر العسقلاني : « ولا يعارض هذا حديث أبي هريرة رفعه : « إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة صلاته » الحديث أخرجه أصحاب السنن ، لأن الأول محمول على ما يتعلق بمعاملات الخلق . والثاني : فيما يتعلق بعبادة الخالق . وقد جمع النسائي في روايته في حديث ابن مسعود بين الخبرين ، ولفظه : « أول ما يحاسب العبد عليه صلاته ، وأول ما يقضى بين الناس في الدماء » (٤) .

(١) صحيح الجامع الصغير : (٣٢٤/٦) ورقم الحديث : ٧٨٨٧ .

(٢) جامع الأصول : (٤٣٦/١٠) ، ورقمه : ٧٩٦٨ .

(٣) فتح الباري : (٣٩٧/١١) .

(٤) فتح الباري : (٣٩٦/١١) .

المطلب الثالث الاقتصاص للبهائم بعضها من بعض

« يقضي الله بين خلقه : الجن والإنس والبهائم ، وإنه ليقيد يومئذ الجاه من القرناء ، حتى إذا لم يبق تبعه عند واحدة لأخرى قال الله : كونوا ترابا ، فعند ذلك يقول الكافر : ﴿يَلْبِئْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾^(١) .

هذا حديث أخرجه ابن جرير في تفسيره بإسناده إلى أبي هريرة يرفعه ، وفي رواية أخرى أخرجه ابن جرير أيضا عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : « إن الله يحشر الخلق كلهم ، كل دابة وطائر وإنسان ، يقول للبهائم والطيور : كونوا ترابا ، فعند ذلك يقول الكافر : ﴿يَلْبِئْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾^(٢) .

وعن ابن جرير أيضا عن عبدالله بن عمرو قال : « إذا كان يوم القيامة مدّ الأديم ، وحشر الدواب والبهائم والوحش ، ثم يحصل القصاص بين الدواب ، يقتص للشاة الجاه من الشاة القرناء نطحتها ، فإذا فرغ من القصاص بين الدواب ، قال لها : كوني ترابا ، قال فعند ذلك يقول الكافر : ﴿يَلْبِئْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾^(٣) .

وأخرج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة ، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء » .

وأخرج أحمد في مسنده بإسناد رجاله رجال الصحيح عن أبي هريرة رضي الله

(١) سورة النبا : ٤٠ .

(٢) سورة النبا : ٤٠ .

(٣) سورة النبا : ٤٠ .

عنه عن النبي ﷺ قال : « يقتص الخلق بعضهم من بعض حتى الجباء من القرناء ، وحتى الذرة من الذرة » .

وفي المسند أيضا عن أبي هريرة يرفعه : « ألا والذي نفسي بيده ليختصمن كل شيء يوم القيامة ، حتى الشاتان فيما انتطحتا » .

وروى أحمد بإسناد صحيح عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ رأى شاتين تنطحان ، فقال : أبا ذر ، هل تدري فيم تنطحان ؟
قال : لا .

قال : ولكن الله يدري وسيقضي بينهما^(١) .

كيف يقتص من البهائم وهي غير مكلفة ؟

أشكل على كثير من أهل العلم هذا الذي ذكره الرسول ﷺ من حشر البهائم والاقتصاص لبعضها من بعض ، وقد وضع هذا النووي في شرحه على صحيح مسلم فقال :

« هذا تصريح بحشر البهائم يوم القيامة ، وإعادتها يوم القيامة كما يعاد أهل التكليف من آدميين ، وكما يعاد الأطفال والمجانين ، ومن لم تبلغه دعوة . وعلى هذا تظاهرت دلائل القرآن والسنة ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾^(٢) ، وإذا ورد لفظ الشرع ولم يمنع من إجرائه على ظاهره عقل ولا

(١) أورد الشيخ ناصر هذه الأحاديث ، وتكلم على أسانيدھا في سلسلة الأحاديث الصحيحة :
. (٦١١-٦٠٦/٤)

(٢) سورة التكويد : ٥ .

شرع ، وجب حملة على ظاهره . قال العلماء : وليس من شرط الحشر والإعادة في القيامة المجازاة والعقاب والثواب . وأما القصاص من القرناء للجلحاء فليس هو من قصاص التكليف ، إذ لا تكليف عليها ، بل هو قصاص مقابلة ، و(الجلحاء) بالمد هي الجماء التي لا قرن لها . والله أعلم .

قال الشيخ ناصر الدين الألباني بعد إيراده هذه الفقرة من كلام النووي : وذكر نحوه ابن الملك في «مبارق الأزهار» (٢/٢٩٣) مختصراً . ونقل عنه العلامة الشيخ علي القاري في «المرقاة» (٤/٧٦١) أنه قال :

« فإن قيل : الشاة غير مكلفة ، فكيف يقتص منها ؟ قلنا : إن الله تعالى فعال لما يريد ، ولا يسأل عما يفعله ، والغرض منه إعلام العباد أن الحقوق لا تضيع ، بل يقتص حق المظلوم من الظالم » .

قال القاري : « وهو وجه حسن ، وتوجيه مستحسن ، إلا أن التعبير عن الحكمة بـ (الغرض) وقع في غير موضعه . وجملة الأمر أن القضية دالة بطريق المبالغة على كمال العدالة بين كافة المكلفين ، فإنه إذا كان هذا حال الحيوانات الخارجة عن التكليف ، فكيف بذوي العقول من الوضيع والشريف ، والقوي والضعيف ؟ » .

وعقب على هذا الشيخ ناصر قائلا : «ومن المؤسف أن تُرد كل هذه الأحاديث من بعض علماء الكلام بمجرد الرأي ، وأعجب منه أن ينجح إليه العلامة الألوسي ! فقال بعد أن ساق الحديث عن أبي هريرة من رواية مسلم ومن رواية أحمد بلفظ الترجمة عند تفسيره آية ﴿ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾^(١) في تفسيره «روح المعاني» (٣٠٠٦/٩) :

« ومال حجة الإسلام الغزالي وجماعة إلى أنه لا يحشر غير الثقلين ، لعدم

(١) سورة التكويد : ٥ .

كونه مكلفاً ، ولا أهلاً لكرامة بوجه ، وليس في هذا الباب نص من كتاب أو سنة معول عليها يدل على حشر غيرهما من الوحوش ، وخبر مسلم والترمذي وإن كان صحيحاً ، لكنه لم يخرج مخرج التفسير للآية ، ويجوز أن يكون كناية عن العدل التام . وإلى هذا القول أميل ، ولا أجزم بخطأ القائلين بالأول ، لأن لهم ما يصلح مستنداً في الجملة . والله تعالى أعلم .

قلت (الشيخ ناصر) : كذا قال - عفا الله عنا وعنه - وهو منه غريب جداً لأنه على خلاف ما نعرفه عنه في كتابه المذكور ، من سلوك الجادة في تفسير آيات الكتاب على نهج السلف ، دون تأويل أو تعطيل ، فما الذي حمله هنا على أن يفسر الحديث على خلاف ما يدل عليه ظاهره ، وأن يحمله على أنه كناية عن العدل التام ، ليس هذا تكديماً للحديث المصرح بأنه يقاد للشاة الجهاء من الشاة القرناء ، فيقول هو تبعاً لعلماء الكلام : إنه كناية ! . . . أي لا يقاد للشاة الجهاء . وهذا كله يقال لو وقفنا بالنظر عند رواية مسلم المذكورة ، أما إذا انتقلنا به إلى الروايات الأخرى كحديث الترجمة ، وحديث أبي ذر وغيره ؛ فإنها قاطعة في أن القصاص المذكور هو حقيقة وليس كناية ، ورحم الله الإمام النووي ، فقد أشار بقوله السابق : « وإذا ورد لفظ الشرع ولم يمنع من إجرائه على ظاهره عقل ولا شرع وجب حمله على ظاهره » .

قلت : أشار بهذا إلى رد التأويل المذكور ، وبمثل هذا التأويل أنكر الفلاسفة وكثير من علماء الكلام كالمعتزلة وغيرهم رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة ، وعلوه على عرشه ، ونزوله إلى السماء الدنيا كل ليلة ، وبجيبته تعالى يوم القيامة . وغير ذلك من آيات الصفات وأحاديثها .

وبالجملة ، فالقول بحشر البهائم والاقتصاص لبعضها من بعض هو الصواب الذي لا يجوز غيره ، فلا جرم أن ذهب إليه الجمهور كما ذكر الألويسي

نفسه في مكان آخر من « تفسيره » (٢٨١/٩) ، وبه جزم الشوكاني في تفسير آية
« التكوير » من تفسيره « فتح القدير » ، فقال (٣٧٧/٥) :

« الوحوش ما توحش من دواب البر ، ومعنى (حشرت) بعثت ، حتى
يقتص لبعضها من بعض ، فيقتص للجاء من القرناء »^(١) .

المطلب الرابع

متى يقتص للمؤمنين بعضهم من بعض ؟

في صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ
قال : « إذا خلص المؤمنون من النار ، حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار ، فيتقاصون
مظالم كانت بينهم في الدنيا ، حتى إذا نقوا وهذبوا ، أذن لهم بدخول الجنة ،
فوالذي نفس محمد بيده ، لأحدهم بمسكنه في الجنة أدل بمنزله كان في الدنيا »^(٢) .

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة ، للشيخ ناصر الدين الألباني : (٦١٢/٤) .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب المظالم ، باب قصاص المظالم ، فتح الباري : (٩٦/٥) .

الفصل الثاني عشر الميزان

المطلب الأول تعريفه

في ختام ذلك اليوم ينصب الميزان لوزن أعمال العباد ، يقول القرطبي :
« وإذا انقضى الحساب كان بعده وزن الأعمال ، لأن الوزن للجزاء ، فينبغي أن
يكون بعد المحاسبة ، فإن المحاسبة لتقدير الأعمال ، والوزن لإظهار مقاديرها
ليكون الجزاء بحسبها » (١) .

وقد دلت النصوص على أن الميزان ميزان حقيقي ، لا يقدر قدره إلا الله
تعالى ، فقد روى الحاكم عن سلمان عن النبي ﷺ : قال « يوضع الميزان يوم
القيامة ، فلو وزن فيه السموات والأرض لوسعت . فتقول الملائكة : يا رب لمن
يزن هذا ؟ فيقول الله تعالى : لمن شئت من خلقي . فتقول الملائكة : سبحانك ما
عبدناك حق عبادتك » (٢) .

وهو ميزان دقيق لا يزيد ولا ينقص « وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا
تُظَلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكُنَّا بِهَا حَسِيبِينَ » (٣) .

(١) تذكرة القرطبي : ٣٠٩ .

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٦٥٦/٢) . ورقم الحديث : ٩٤١ .

(٣) سورة الأنبياء : ٤٧ .

وقد اختلف أهل العلم في وحدة الميزان وتعددده ، فذهب بعضهم إلى أن لكل شخص ميزانا خاصا ، أو لكل عمل ميزانا لقوله تعالى : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ (١) .

وذهب آخرون إلى أن الميزان واحد ، وأن الجمع في الآية إنما هو باعتبار تعدد الأعمال أو الأشخاص .

وقد رجح ابن حجر بعد حكايته للخلاف أن الميزان واحد ، قال : « ولا يشكل بكثرة من يوزن عمله ، لأن أحوال القيامة لا تكيف بأحوال الدنيا » (٢) .

وقال السفاريني : « قال الحسن البصري : لكل واحد من المكلفين ميزان . قال بعضهم : الأظهر إثبات موازين يوم القيامة لا ميزان واحد ، لقوله تعالى : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ ﴾ ، وقوله : ﴿ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴾ . قال : وعلى هذا فلا يبعد أن يكون لأفعال القلوب ميزان ، ولأفعال الجوارح ميزان ، ولما يتعلق بالقول ميزان . أورد هذا ابن عطية وقال : الناس على خلافة ، وإنما لكل واحد وزن مختص به ، والميزان واحد . وقال بعضهم إنما جمع الموازين في الآية الكريمة لكثرة من توزن أعمالهم . وهو حسن » (٣) .

المطلب الثاني الميزان عند أهل السنة

الميزان عند أهل السنة ميزان حقيقي توزن به أعمال العباد وخالف في هذا المعتزلة ، وقلة قليلة من أهل السنة .

(١) سورة الأنبياء : ٤٧ .

(٢) فتح الباري : (٥٣٧/٣) .

(٣) لوامع الأنوار البهية : (١٨٦/٢) .

قال ابن حجر : « قال أبو إسحق الزجاج : أجمع أهل السنة على الإيمان بالميزان ، وأن أعمال العباد توزن به يوم القيامة ، وأن الميزان له لسان وكفتان ويميل بالأعمال . وأنكرت المعتزلة الميزان ، وقالوا : هو عبارة عن العدل ؛ فخالفوا الكتاب والسنة ، لأن الله أخبر أنه يضع الموازين لوزن الأعمال ، ليرى العباد أعمالهم ممثلة ليكونوا على أنفسهم شاهدين .

وقال ابن فورك : أنكرت المعتزلة الميزان ، بناء منهم على أن الأعراض يستحيل وزنها إذ لا تقوم بأنفسها .

قال : وقد روى بعض المتكلمين عن ابن عباس أن الله تعالى يقبض الأعراض أجساما فيزينها . انتهى .

وقد ذهب بعض السلف إلى أن الميزان بمعنى العدل والقضاء ، وعزا الطبري القول بذلك إلى مجاهد .

والراجع ما ذهب إليه الجمهور .

وَدُكِّرَ المِيزَانُ عِنْدَ الحَسَنِ فَقَالَ : لَهُ لِسَانٌ وَكِفْتَانٌ ،^(١) .

وعزا القرطبي تفسير الميزان بالعدل إلى مجاهد والضحاك والأعمش^(٢) . ولعل هؤلاء العلماء فسروا الميزان بالعدل في مثل قوله تعالى : ﴿وَأَلْسِمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾^(٣) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ^(٤) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ^(٥) ، فالميزان في هذه الآية العدل ، أمر الله عباده أن يتعاملوا به فيما بينهم ، أما الميزان الذي ينصب في يوم القيامة فقد تواترت بذكره الأحاديث ، وأنه ميزان حقيقي ، وهو ظاهر القرآن^(٦) .

(١) فتح الباري : (١٣/٥٣٨) بتصرف يسير .

(٢) تذكرة القرطبي : ٣١٣ .

(٣) سورة الرحمن : ٧ - ٩ .

(٤) النهاية لابن كثير : (٢/٣٤) .

وقد رد الإمام أحمد على من أنكر الميزان بأن الله تعالى ذكر الميزان في قوله : ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾^(١) . والنبي ﷺ ذكر الميزان يوم القيامة ، فمن رد على النبي ﷺ ، فقد رد على الله عز وجل^(٢) .

وقد استدل شيخ الإسلام على أن الميزان غير العدل ، وأنه ميزان حقيقي توزن به الأعمال بالكتاب والسنة ، فقال :

« الميزان : هو ما يوزن به الأعمال ، وهو غير العدل كما دلَّ على ذلك الكتاب والسنة ، مثل قوله تعالى : ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾^(٣) ، ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾^(٤) ، وقوله : ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾^(٥) .

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » . وقال عن ساقئ عبد الله بن مسعود : « لهما في الميزان أثقل من أحد » .

وفي الترمذي وغيره حديث البطاقة ، وصححه الترمذي والحاكم وغيرهما في الرجل الذي يؤتى به ، فينشر له تسعة وتسعون سجلا ، كل سجل منها مدَّ البصر ، فيوضع في كِفَّة ، ويؤتى ببطاقة فيها شهادة أن لا إله إلا الله . قال النبي ﷺ : « فطاشت السجلات وثقلت البطاقة » . وهذا وأمثاله مما يبين أن الأعمال توزن بموازين تبين بها رجحان الحسنات على السيئات وبالعكس ، فهو ما به تبين العدل . والمقصود بالوزن العدل ، كموازين الدنيا .

(١) سورة الأنبياء : ٤٧ .

(٢) فتح الباري : (١٣/٥٣٨) .

(٣) سورة المؤمنون : ١٠٢ .

(٤) سورة المؤمنون : ١٠٣ .

(٥) سورة الأنبياء : ٤٧ .

وأما كيفية تلك الموازين فهو بمنزلة كيفية سائر ما أخبرنا به من الغيب» (١) .

وقد ردَّ القرطبي على الذين أنكروا الميزان وأولوا النصوص الواردة فيه وحملوها على غير محلها قائلاً : « قال علماؤنا ولو جاز حمل الميزان على ما ذكروه ، لجاز حمل الصراط على الذين الحق ، والجنة والنار على ما يرد على الأرواح دون الأجساد من الأحزان والأفراح ، والشياطين والجن على الأخلاق المذمومة ، والملائكة على القوى المحمودة ، وهذا كله فاسد ، لأنه رد لما جاء به الصادق ، وفي الصحيحين فيعطى صحيفة حسناته ، وقوله : فيخرج له بطاقة ، وذلك يدل على الميزان الحقيقي ، وأن الموزون صحف الأعمال كما بينا وبالله التوفيق » (٢) .

المطلب الثالث ما الذي يوزن في الميزان

اختلف أهل العلم في الموزون في ذلك اليوم على أقوال :

الأول : أن الذي يوزن في ذلك اليوم الأعمال نفسها ، وأنها تجسم فتوضع في الميزان ، ويدل لذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه في الصحيح قال : قال رسول الله ﷺ : « كلمتان حبیبتان إلى الرحمن ، خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » (٣) .

وقد دلت نصوص كثيرة على أن الأعمال تأتي في يوم القيامة في صورة الله

(١) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : (٣٠٢/٤) .

(٢) التذكرة : ٣١٤ .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب التوحيد ، باب (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة) . فتح الباري

(٥٣٧/١٣) .

أعلم بها ، فمن ذلك مجيء القرآن شافعا لأصحابه في يوم القيامة ، وأن البقرة وآل عمران تأتيان كأنهما غمامتان أو غيابتان ، أو فرقان من طير صواف تحاجان عن أصحابهما . ففي صحيح مسلم عن أبي أمامة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « اقرأوا القرآن ، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه . اقرأوا الزهراوين : البقرة وسورة آل عمران ، فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان ، أو غيابتان^(١) ، أو فرقان^(٢) من طير صواف تحاجان عن أصحابهما »^(٣) .

وروى مسلم أيضا عن النواس بن سمعان قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به ، تقدمه سورة البقرة وآل عمران ، كأنهما غمامتان ، أو ظلتان بينهما شرق^(٤) ، أو كأنهما فرقان من طير صواف تحاجان عن صاحبهما »^(٥) .

وهذا القول رجَّحه ابن حجر العسقلاني ونصره ، فقال : « والصحيح أن الأعمال هي التي توزن ، وقد أخرج أبو داود والترمذي ، وصححه ابن حبان عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال : « ما يوضع في الميزان يوم القيامة أثقل من حسن الخلق » .

الثاني : أن الذي يوزن هو العامل نفسه ، فقد دلت النصوص على أن العباد يوزنون في يوم القيامة ، فيثقلون في الميزان أو يخفون بمقدار إيمانهم ، لا بضخامة

(١) الغيبة : أقل كثافة من الغمامة ، وأقرب إلى رأس صاحبها .

(٢) فرقان : طائفتان .

(٣) مشكاة المصابيح : (١/٦٥٦) - ورقم الحديث : ٢١٢٠ .

(٤) شرق : أي ضوء ونور .

(٥) مشكاة المصابيح : (١/٦٥٦) . ورقم الحديث : ٢١٢١ .

أجسامهم ، وكثرة ما عليهم من لحم ودهن ، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة ، وقال : اقرأوا ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾ (١) (٢) » .

ويؤتى بالرجل النحيف الضعيف دقيق الساقين فإذا به يزن الجبال ، روى أحمد في مسنده ، عن زر بن حبيش عن ابن مسعود ، أنه كان رقيق الساقين ، فجعلت الريح تلقيه ، فضحك القوم منه ، فقال رسول الله ﷺ : « مم تضحكون ؟ » قالوا : يا نبي الله من رقة ساقيه «

قال : « والذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من أحد » .

قال ابن كثير : تفرد به أحمد وإسناده جيد قوي (٣) .

وما أحسن ما قال الشاعر :

ترى الرجل النحيف فتزدريه وفي أثوابه أسد هرير
ويعجبك الطرير فتبتليه فيخلف ظنك الرجل الطرير

الثالث : أن الذي يوزن إنما هو صحائف الأعمال . فقد روى الترمذي في

« سننه » عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله سيخلص رجلا من أممي على رؤوس الخلائق يوم القيامة ، فينشر له تسعة وتسعين سجلا ، كل سجل مثل مدّ البصر ، ثم يقول : أتتكر من هذا شيئا ؟ أظلمك كتبتي الحافظون ؟ فيقول : لا يارب ، فيقول : ألك عذر ؟ فيقول لا يارب .

(١) سورة الكهف : ١٠٥ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، تفسير سورة الكهف ، فتح الباري : (٤٢٦/٨) .

(٣) النهاية لابن كثير : (٢٩/٢) .

فيقول الله تعالى : بلى ، إن لك عندنا حسنة ، فإنه لا ظلم اليوم ، فتخرج بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، فيقول : احضر وزنك فيقول : يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقول : فإنك لا تظلم ، فتوضع السجلات في كفة ، والبطاقة في كفة ، فطاشت السجلات ، وثقلت البطاقة ، ولا يثقل مع اسم الله شيء ^(١) .

وقد مال القرطبي إلى هذا القول ، فقال : « والصحيح أن الموازين تثقل بالكتب فيها الأعمال مكتوبة ، وبها تخف ، ... قال ابن عمر : توزن صحائف الأعمال ، وإذا ثبت هذا فالصحف أجسام ، فيجعل الله تعالى رجحان إحدى الكفتين على الأخرى دليلا على كثرة أعماله بإدخاله الجنة أو النار » ^(٢) .

وقال السفاريني : « والحق أن الموزون صحائف الأعمال ، وصححه ابن عبدالبر والقرطبي وغيرهما ، وصوبه الشيخ مرعي في « بهجته » ، وذهب إليه جمهور من المفسرين ، وحكاه ابن عطية عن أبي المعالي .. » ^(٣) .

ولعل الحق أن الذي يوزن هو العامل وعمله وصحف أعماله ، فقد دلت النصوص التي سقناها على أن كل واحد من هذه الثلاثة يوزن ، ولم تنف النصوص المثبتة لوزن الواحد منها أن غيره لا يوزن ، فيكون مقتضى الجمع بين النصوص إثبات الوزن للثلاثة المذكورة جميعها .

وهذا ما رجحه الشيخ حافظ الحكيمي فقال : « والذي استظهر من

(١) جامع الأصول : (٤٥٩/١٠) ورقمه ٧٩٨١ ، قال محقق الجامع : إسناده صحيح ، ورواه ابن

ماجة ، وابن حبان في صحيحه ، والحاكم والبيهقي وغيرهم .

(٢) تذكرة القرطبي : ٣١٣ .

(٣) لوامع الأنوار البهية : (١٨٧/٢) .

النصوص - والله أعلم - أن العامل وعمله وصحيفة عمله - كل ذلك يوزن ، لأن الأحاديث التي في بيان القرآن ، قد وردت بكل ذلك ، ولا منافاة بينها ، ويدل كذلك ما رواه أحمد - رحمه الله تعالى - عن عبدالله بن عمرو في قصة صاحب البطاقة بلفظ : قال : قال رسول الله : « توضع الموازين يوم القيامة ، فيؤق بالرجل ، فيوضع في كفة ، ويوضع ما أحصى عليه ، فيمائل به الميزان . قال : فيبعث به إلى النار .

قال : فإذا أدبر ، إذا صائح من عند الرحمن - عز وجل - يقول : لا تعجلوا ، فإنه قد بقي له ، فيؤق ببطاقة فيها لا إله إلا الله ، فتوضع مع الرجل في كفه ، حتى يميل به الميزان » .

فهذا يدل على أن العبد يوضع هو وحسناته وصحيفتها في كفة وسيئاته مع صحيفتها في الكفة الأخرى ، وهذا غاية الجمع بين ما تفرق ذكره في سائر أحاديث الوزن ، والله الحمد والمنة ^(١) .

المطلب الرابع الأعمال التي تثقل في الميزان

أثقل ما يوضع في ميزان العبد حسن الخلق ، فعن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال : « إن أثقل شيء يوضع في ميزان العبد يوم القيامة خلق حسن ، وإن الله يبغض الفاحش البذيء » . رواه الترمذي وقال : هذا حديث حسن صحيح ، وروى أبو داود الفصل الأول ^(٢) .

(١) معارج القبول : (٢٧٢/٢) .

(٢) مشكاة المصابيح : (٦٣٠/٢) ، ورقم الحديث : ٥٠٨١ .

وفي صحيح البخاري ومسلم وسنن الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه
أن النبي ﷺ قال : « كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى
الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » (١) .

وفي صحيح مسلم عن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ :
« الطهور شرط الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله تملآن (أو
تملأ) . ما بين السماء والأرض » (٢) .

وروى البخاري والنسائي وأحمد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « من
احتبس فرسا في سبيل الله ، إيمانا بالله ، وتصديقا بوعده ، كان شعبة ورثه ،
وروثه ، وبوله ، حسنات في ميزانه يوم القيامة » (٣) .

(١) جامع الأصول : (٣٩٧/٤) ، ورقمه : ٢٤٦٢ .
(٢) صحيح مسلم : (٢٠٣/١) ، ورقم الحديث : ٢٢٣ .
(٣) صحيح الجامع الصغير : (٢٢٩/٥) ، ورقم الحديث : ٥٨٤٣ .

الفصل الثالث عشر

الحوض

يكرم الله عبده ورسوله محمدا ﷺ في الموقف العظيم بإعطائه حوضاً واسع الأرجاء ، ماؤه أبيض من اللبن ، وأحلى من العسل ، وريحه أطيب من المسك ، وكيزانه كنجوم السماء ، يأتيه هذا الماء الطيب من نهر الكوثر ، الذي أعطاه لرسوله ﷺ في الجنة ، ترد عليه أمة المصطفى ﷺ ، من شرب منه شربة لا يظماً بعدها أبداً .

وقد اختلف أهل العلم في موضعه فذهب الغزالي والقرطبي إلى أنه يكون قبل المرور على الصراط في عرصات القيامة، واستدلوا على ذلك بأنه يؤخذ بعض واردية إلى النار فلو كان بعد الصراط لما استطاعوا الوصول إليه^(١) .

واستظهر ابن حجر أن مذهب البخاري أن الحوض يكون بعد الصراط ، لأن البخاري أورد أحاديث الحوض بعد أحاديث الشفاعة ، وأحاديث نصب الصراط^(٢) .

وما ذهب إليه القرطبي أرجح ، وقد استعرض ابن حجر أدلة الفريقين في كتابه القيم : « فتح الباري »^(٣) .

(١) انظر تذكرة القرطبي : ٣٠٢ .

(٢) انظر فتح الباري : (٤٦٦/١١) .

(٣) فتح الباري : (٤٦٦/١١) .

المَبْحَثُ الأَوَّلُ الأَحَادِيثُ الوَارِدَةُ فِيهِ

الأحاديث الواردة في الحوض متواترة ، لا شك في تواترها عند أهل العلم بأحاديث الرسول ﷺ ، وقد رواها عن الرسول ﷺ أكثر من خمسين صحابياً ، وقد ذكر ابن حجر أساء رواة أحاديثه من الصحابة^(١) .

ونحن نسوق هنا بعض هذه الأحاديث التي أوردتها الخطيب التبريزي في مشكاته^(٢) :

١ - عن عبدالله بن عمرو ، قال : قال رسول الله ﷺ : « حوضي مسيرة شهر ، وزواياه سواء^(٣) . ماؤه أبيض من اللبن ، وريحه أطيب من المسك ، وكيزانه كنجوم السماء ، من يشرب منها فلا يظمأ أبداً » . متفق عليه .

٢ - وعن أبي هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ : « إن حوضي أبعد من أيلة^(٤) من عدن هو أشدُّ بياضاً من الثلج ، وأحلى من العسل باللبن ، ولأنيته أكثر من عدد النجوم ، وإني لأصد الناس عنه كما يصد الرجل إبل الناس عن حوضه » .

قالوا : يا رسول الله ! أتعرفنا يومئذ ؟ قال : « نعم ، لكم سياء^(٥) ليست

(١) فتح الباري : (١١/٤٦٨) .

(٢) مشكاة المصابيح : (٣/٦٨) .

(٣) أي مربع لا يزيد طوله عن عرضه شيئاً .

(٤) هي مدينة العقبة في الأردن .

(٥) السياء : العلامة .

لأحد من الأمم ، تردون علي غرا محجلين من أثر الوضوء » . رواه مسلم .
٣ - وفي رواية له^(١) عن أنس . قال « ترى فيه أباريق الذهب والفضة كعدد نجوم السماء » .

٤ - وفي أخرى له عن ثوبان ، قال : سئل عن شرابه . فقال : « أشد بياضا من اللبن ، وأحلى من العسل يغت^(٢) ، فيه ميزابان يُمدَّأنه من الجنة ، أحدهما من ذهب والآخر من ورق » .

(١) أي لمسلم .
(٢) يَغْت : أي يَصُبُّ ويسيل .

المَبْحَثُ الثَّانِي الَّذِينَ يَرُدُّونَ الْحَوْضَ وَالَّذِينَ يُزَادُونَ عَنْهُ

وردت أحاديث كثيرة بين فيها الرسول ﷺ الذين يردون على حوضه ،
والذين يمنعون من الشرب منه ، ونحن نذكر لك بعض ما أورده ابن الأثير منها في
جامع الأصول^(١) .

١ - روى البخاري ومسلم عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول
الله ﷺ : « أنا فرطكم على الحوض ، وليرفعن إلي رجال منكم ، حتى إذا
أهويت إليهم لأناولهم اختلجوا دوني^(٢) ، فأقول : أي رب ، أصحابي ،
فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ؟ »

٢ - ورويا أيضا عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ليردن
على الحوض رجال ممن صاحبي ، حتى إذا رأيتهم ، ورفعوا إلي ، اختلجوا
دوني ، فلاقولن : أي رب ، أصحابي ، أصحابي ، فليقالن لي : إنك لا
تدري ما أحدثوا بعدك » .

وفي رواية « ليردن علي ناس من أمتي . . . الحديث ، وفي آخره : فأقول :
سحقا لمن بدل بعدي » أخرجه البخاري ومسلم .

٣ - ورويا عن أبي حازم رحمه الله عن سهل بن سعد رضي الله عنه ، قال :

(١) جامع الأصول : ٤٦٨/١ .

(٢) اختلجوا : أخذوا بسرعة .

سمعت النبي ﷺ يقول : « أنا فرطكم على الحوض ، من ورد شرب ، ومن شرب لم يظماً أبدا ، وليردن علي أقوام أعرفهم ويعرفوني ، ثم مجال بيني وبينهم ، قال أبو حازم : فسمع النعمان بن أبي عياش وأنا أحدثهم هذا الحديث ، فقال : هكذا سمعت سهلاً يقول ؟ فقلت : نعم ، قال : وأنا أشهد على أبي سعيد الخدري لسمعته يزيد ، فيقول : فإنهم مني ، فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، فأقول سحقاً سحقاً لمن بدل بعدي » . أخرجه البخاري ومسلم .

٤ - ولهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يرد علي يوم القيامة رهط من أصحابي - أوقال : من أمتي - فَيَحْلَتُونَ^(١) عن الحوض ، فأقول : يارب ، أصحابي ، فيقول : إنه لا علم لك بما أحدثوا بعدك إنهم ارتدوا على أدبارهم القهقري » وفي رواية « فيجلون » أخرجه البخاري ومسلم .

وللبخاري : أن رسول الله ﷺ قال : « بينا أنا قائم على الحوض ، إذا زمرة ، حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم ، فقال : هلم ، فقلت : إلى أين ؟ فقال : إلى النار والله ، فقلت : ما شأنهم ؟ فقال : إنهم قد ارتدوا على أدبارهم القهقري ، ثم إذا زمرة أخرى ، حتى عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم فقال لهم : هلم ، قلت : إلى أين ؟ قال : إلى النار والله ، قلت : ما شأنهم ؟ قال : إنهم قد ارتدوا على أدبارهم ، فلا أراه يخلص منهم إلا مثل همل النعم »^(٢) .

ولمسلم : أن رسول الله ﷺ قال : « ترد علي أمتي الحوض ، وأنا أذود الناس عنه ، كما يذود الرجل إبل الرجل عن إبله ، قالوا : يا نبي الله تعرفنا ؟ قال : نعم ، لكم سيبا ليست لأحد غيركم ، تردون غرا محجلين من آثار الوضوء وليصدن عني طائفة منكم ، فلا يصلون ، فأقول : يارب ، هؤلاء من أصحابي ، فيجيء

(١) يجلون : أي يدفعون ويطردون .

(٢) همل النعم : الإبل الضالة . والمعنى أن الناجي منهم قليل .

ملك ، فيقول : وهل تدري ما أحدثوا بعدك ؟ » .

وفي أخرى قال : « إن حوضي أبعد من أيلة من عدن ، لهو أشد بياضاً من الثلج ، وأحلى من العسل باللبن ، ولأنيته أكثر من عدد النجوم ، وإني لأصد الناس عنه كما يصد الرجل إبل الناس عن حوضه ، قالوا : يا رسول الله ، أتعرفنا يومئذ ؟ قال : نعم ، لكم سيما^(١) ليست لأحد من الأمم ، تردون عليّ غرا محجلين » .

وقد أورد القرطبي في تذكرة بعض الأحاديث التي سقناها ثم قال : « قال علماؤنا رحمة الله عليهم أجمعين : فكل من ارتد عن دين الله أو أحدث فيه مالا يرضاه الله ، ولم يأذن به الله فهو من المطرودين عن الحوض ، المبعدين عنه ، وأشدهم طرداً من خالف جماعة المسلمين وفارق سبيلهم كالخوارج على اختلاف فرقها ، والروافض على تباين ضلالها ، والمعتزلة على أصناف أهوائها ، فهؤلاء كلهم مبدلون .

وكذلك الظلمة المسرفون في الجور والظلم وتطمس الحق وقتل أهله وإذلالهم والمعلنون بالكبائر المستخفون بالمعاصي ، وجماعة أهل الزيغ والأهواء والبدع .

ثم البعد قد يكون في حال ، ويقربون بعد المغفرة إن كان التبديل في الأعمال ، ولم يكن في العقائد ، وعلى هذا يكون نور الوضوء يعرفون به ، ثم يقال لهم : سحقاً ، وإن كانوا من المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ يظهرون الإيمان ويسرون الكفر فيأخذهم بالظاهر ، ثم يكشف لهم الغطاء فيقال لهم : سحقاً سحقاً ، ولا يخلد في النار إلا كل جاحد مبطل ، ليس في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان^(٢) .

(١) السيام : العلامة .

(٢) التذكرة للقرطبي : ص ٣٠٦ .

الفضل الرابع عشر أحشر إلى دار القرار: الجنة أو النار

المبحث الأول

يطلب من كل أمة أن تتبّع الإله الذي كانت تعبده

في ختام هذا اليوم يحشر العباد إمّا إلى الجنة وإمّا إلى النار ، وهما المقرّ الأخير الذي يصير إليه العباد جميعاً ، وقد أخبرنا الرسول ﷺ أنه يطلب من كل أمة في آخر ذلك اليوم أن تتبّع الإله الذي كانت تعبده ، فالذي كان يعبد الشمس يتبّع الشمس ، والذي كان يعبد القمر يتبّع القمر ، والذي كان يعبد الأصنام تصوره لهم آلهتهم ثم تسير أمامهم ويتبعونها ، والذين كانوا يعبدون فرعون يتبعونه ، ثم إن هذه الآلهة الباطلة تتساقط في النار ، ويتساقط عبادها وراءها في السعير ، كما قال تعالى في فرعون : ﴿ يَفْقَهُمْ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ ﴾ (١) .

ولا يبقى بعد ذلك إلا المؤمنون وبقايا أهل الكتاب ، وفي المؤمنين المنافقون الذين كانوا معهم في الدنيا ، فيأتيهم ربهم ، فيقول لهم ما تنتظرون ؟ فيقولون ننتظر ربنا ، فيعرفونه بساقه عندما يكشفها لهم ، وعند ذلك يجرون له سجوداً ، إلا المنافقون فلا يستطيعون ﴿ يَوْمَ يَكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ (٢) ، ثم يتبّع المؤمنون ربهم ، وينصب الصراط ويعطى المؤمنون أنوارهم ، ويسيروا على الصراط ، ويطفأ نور المنافقين ، ويقال لهم : ارجعوا

(١) سورة هود : ٩٨ .

(٢) سورة القلم : ٤٢ .

وراءكم فالتمسوا نورا ، ثم يضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ، ويمر العباد على الصراط مسرعين بقدر إيمانهم وأعمالهم الصالحة .
 روى مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري ، عن النبي ﷺ ، قال :
 «إذا كان يوم القيامة أذن مؤذن : لتتبع كل أمة ما كانت تعبد ، فلا يبقى أحد كان يعبد غير الله سبحانه من الأصنام والأنصاب إلا يتساقطون في النار ، حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر ، وغُبر^(١) أهل الكتاب . فيدعى اليهود ، فيقال لهم : ما كنتم تعبدون ؟ قالوا : كنا نعبد عزيز ابن الله . فيقال : كذبتُم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد . فماذا تبغون ؟ قالوا : عطشنا يا ربنا ، فاسقنا . فيشار إليهم : ألا تردون ؟ فيحشرون إلى النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضا ، فيتساقطون في النار .

ثم يدعى النصارى ، فيقال لهم : ما كنتم تعبدون ؟ قالوا : كنا نعبد المسيح ابن الله ، فيقال لهم : كذبتُم ، ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد ، فيقال لهم : ما تبغون ؟ فيقولون : عطشنا ، يا ربنا فاسقنا ، قال : فيشار إليهم : ألا تردون ؟ فيحشرون إلى جهنم كأنها سراب ، يحطم بعضها بعضا ، فيتساقطون في النار . حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله تعالى من بر وفاجر ، أتاهم رب العالمين سبحانه وتعالى في أدنى صورة من التي رأوه فيها ، قال : فماذا تنتظرون ؟ تتبع كل أمة ما كانت تعبد . قالوا : يا ربنا ، فارقنا الناس في الدنيا أفقر ما كنا إليهم ، ولم نصاحبهم ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : نعوذ بالله منك ، لا نشرك بالله شيئا (مرتين أو ثلاثا) حتى أن بعضهم ليكاد أن ينقلب . فيقول : هل بينكم وبينه آية فتعرفونه بها ؟ فيقولون : نعم ، فيكشف عن ساق ، فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا أذن الله له بالسجود ولا يبقى من كان يسجد اتقاء ورياء إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة كلما أراد أن يسجد خرَّ على قفاه ، ثم يرفعون رؤوسهم ،

(١) غُبرهم : بقاياهم .

وقد تحول في صورته التي رأوه فيها أول مرة ، فقال : أنا ربكم ، فيقولون : أنت ربنا .

ثم يضرب الجسر على جهنم ، وتحل الشفاعة ، ويقولون : اللهم سلم سلم .

قيل : يا رسول الله ، وما الجسر ؟ قال : دحض مزلة ، فيه خطاطيف وكلايب وحسك ، تكون بنجد فيها شويكة يقال لها : السعدان ، فيمر المؤمنون كطرف العين ، وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والركاب ، فجاج مسلم ، ومخدوش مرسل ، ومكدوس في نار جهنم^(١) .

وروى مسلم أيضا عن أبي هريرة في وصف المرور على الصراط ، قال : قال رسول الله ﷺ : « وترسل الأمانة والرحم ، فتقومان على جنبتي الصراط يمينا وشمالا ، فيمر أولكم كالبرق ، قال : قلت : بأبي أنت وأمي ، أي شيء كالبرق ؟ قال : ألم تروا إلى البرق كيف يمر ويرجع في طرفه عين ؟ ثم كمر الريح ، ثم كمر الطير وشد الرحال ، تجري بهم أعمالهم ، ونبيكم قائم على الصراط يقول : رب ، سلم سلم . حتى تعجز أعمال العباد ، حتى يجيء الرجل فلا يستطيع السير إلا زحفا ، قال : وعلى حافتي الصراط كلايب معلقة مأمورة بأخذ من أمرت به . فمخدوش ناج ، ومكدوس في النار^(٢) .

وروى مسلم في صحيحه عن أبي الزبير ، أنه سمع جابر بن عبد الله يسأل عن الورود ، فقال : « نجىء نحن يوم القيامة عن كذا وكذا^(٣) انظر إلى ذلك فوق

(١) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان ، باب معرفة طريق الرؤية ، (١٦٧/١) ورقمه : (١٨٣) .

(٢) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة ، (١٨٧/١) ورقمه (١٩٥) .

(٣) يقول ابن رجب في تعليقه على هذه اللفظة من الحديث : « أصل هذه اللفظة تصحيف من الرواي للفظ « كوم » ، فكتب عليه كذا وكذا لإشكال فهمه عليه ، ثم كتب انظر إلى ذلك ، يأمر الناظر فيه

الناس ، قال : فتدعى الأمم بأوثانها ، وما كانت تعبد ، الأول فالأول ، ثم يأتينا ربنا بعد ذلك فيقول : من تنظرون ؟ فيقولون : ننظر ربنا ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : حتى ننظر إليك ، فيتجلى لهم يضحك .

قال : فينطلق بهم ويتبعونه ، ويعطى كل إنسان منهم ، منافق أو مؤمن نورا ، ثم يتبعونه ، وعلى جسر جهنم كلاليب وحسك ، تأخذ من شاء الله ثم يطفأ نور المنافقين ، ثم ينجو المؤمنون أول زمرة وجوههم كالقمر ليلة البدر ، سبعون ألفا لا يحاسبون ، ثم الذين يلونهم كأضوأ نجم في السماء .. » (١) .

وروى البخاري ومسلم في صحيحهما عن أبي هريرة أن الرسول ﷺ قال في إجابته للصحابة عندما سألوه عن رؤيتهم لله : « هل تُصَارُونَ في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب ؟ قالوا : لا يارسول الله . قال فإنكم ترونه يوم القيامة كذلك ، يجمع الله الناس ، فيقول : من كان يعبد شيئا فليتبعه ، فيتبع من كان يعبد الشمس ، ويتبع من كان يعبد القمر ، ويتبع من كان يعبد الطواغيت ، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها ، فيأتيهم الله في غير الصورة التي يعرفون ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : نعوذ بالله منك ، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا ، فإذا أتانا ربنا عرفناه ، فيأتيهم الله في الصورة التي يعرفون ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : أنت ربنا ، فيتبعونه ، ويضرب جسر جهنم ، قال رسول الله ﷺ : « فأكون أول من يجيز ، ودعاء الرسل يومئذ : اللهم سلم سلم ، وبه كلاليب مثل شوك السعدان ، أما رأيتم شوك السعدان ؟ قالوا : بلى يارسول الله ، قال : فإنها مثل شوك السعدان ، غير أنها لا يعلم قدر عظمها إلا الله ، فتخطف الناس بأعمالهم ،

== بالتروي والفكر في صحة لفظه ، فأدخل ذلك كله في الرواية قديما ، التخويف من النار : ص ١٩٩ ، وقد ذكر أن الصواب كما جاء في المسند وكتاب السنة : « نحن يوم القيامة على كوم فوق الناس ، فتدعى الأمم بأوثانها .. » .

(١) رواه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة : (١٧٥/١) . ورقمه (١٩١) .

منهم الموق بعمله ، ومنهم المخردل ، ثم ينجو . . . (١) .

وقد دلت هذ النصوص الصحيحة الصريحة الواضحة على عدة أمور مهمة ، فقد ذكرت حشر الكفار إلى النار ، ومسير المؤمنين إلى الجنة على الصراط ، وخلص المؤمنين من المنافقين ، كما أشارت في جملتها إلى معنى الورود على النار الذي نصَّ الله عليه في قوله ﴿ وَإِنْ مَنكُرُوا إِلَّا وَأَرِدُهَا ﴾ (٢) .

وستتناول هذه المباحث بشيء من التفصيل فيما يأتي .

(١) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب الرقاق ، باب الصراط جسر جهنم ، فتح الباري : ٤٤٤/١١ ، ورواه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان ، باب معرفة طريق الرؤية ، (١٦٣/١) ورقم الحديث (١٨٢) ، واللفظ للبخاري .

(٢) سورة مريم : ٧١ .

المَبَحْثُ الثَّانِي حَشْرُ الْكَافِرِ إِلَى النَّارِ

جاءت نصوص كثيرة تصور لنا كيف يكون حشر الكفار إلى النار هم وأهنتهم التي كانوا يعبدونها .

١ - فمن ذلك أنهم يحشرون كقطعان الماشية جماعات جماعات ، ينهرون نهرا غليظا ، ويصاح بهم من هنا وهناك ، كما يفعل الراعي ببقره أو غنمه ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۗ ﴾ (١) ﴿ يَوْمَ يُدْعُونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًا ۗ ﴾ (٢) .
وقال : ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَىٰ النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۗ ﴾ (٣) . ومعنى يوزعون أي يجمعون ، تجمعهم الزبانية أولهم على آخرهم ، كما يفعل البشر بالبهائم .

٢ - وأفادت النصوص أنهم يحشرون إلى النار على وجوههم ، لا كما كانوا يمشون في الدنيا على أرجلهم ، قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ۗ ﴾ (٤) .

روى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك أن رجلا قال : يا رسول الله ، كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة ؟ قال : « أليس الذي أمشاه على رجله في

(١) سورة الزمر : ٧٢ .

(٢) سورة الطور : ١٣ .

(٣) سورة فصلت : ١٩ .

(٤) سورة الفرقان : ٣٤ .

الدنيا قادر أن يمليه على وجهه يوم القيامة » قال قتادة : بلى وعزة ربنا ^(١) .

ومع حشرهم على هذه الصورة المنكرة على وجوههم فإنهم يحشرون عمياً لا يرون ، وبكماً لا يتكلمون ، وصماً لا يسمعون ﴿ وَحَشَرَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمياً وَبُكْماً وَصْماً مَا وَلَّهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعيراً ﴾ ^(٢) .

٣ - ويزيد بلاءهم أنهم يحشرون مع آلهتهم الباطلة وأعوانهم وأتباعهم ﴿ أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ ^(٣) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَأَهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿ ^(٤) .

٤ - وهم في هذا مغلوبون مهجورون أذلاء صاغرون ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتْغْلِبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ ^(٥) .

٥ - وقبل أن يصلوا إلى النار تصك مسامعهم أصواتها التي تملأ قلوبهم رعباً وهلعاً ﴿ إِذَا رَأَوْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيظًا وَزَفِيرًا ﴾ ^(٦) .

٦ - وعندما يبلغون النار ويعاينون أهوالها يندمون ويتمنون العودة إلى الدنيا كي يؤمنوا ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَنْلَيْنَا نُرْدُ وَلَا نُكْذِبُ بِعَايَتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ^(٧) ، ولكنهم لا يجدون من النار مفرّاً ﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ ^(٨) .

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق ، باب الحشر ، فتح الباري : (٣٧٧/١١) . ومسلم : (٢١٦١/٤) . ورقمه : (٢٨٠٦) . واللفظ لمسلم .

(٢) سورة الإسراء : ٩٧ .

(٣) سورة الصافات : ٢٢ - ٢٣ .

(٤) سورة آل عمران : ١٢ .

(٥) سورة الفرقان : ١٢ .

(٦) سورة الأنعام : ٢٧ .

(٧) سورة الكهف : ٥٣ .

٧- وعند ذلك يؤمرون بالدخول في النار وغضب الجبار أذلاء خاسرين

﴿ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ (١) ، ولا

ينجو من النار من الجن والإنس إلا الأتقياء الذين آمنوا بالله وصدقوا

المسلمين ، واتبعوا ما أنزل إليهم من ربهم ﴿ فَوَرَّيْكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ

﴿ ثُمَّ لَنَحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴾ (٢) ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى

الرَّحْمَنِ عِتْبًا ﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلَابًا ﴾ (٣) وَإِنْ مَنَكَرُوا إِلَّا

وَأَرَدُوا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا

جِثِيًّا ﴾ (٤) . يقول سيد قطب رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآيات :

« يقسم الله بنفسه وهو أعظم قسم وأجله ؛ أنهم سيحشرون بعد الموت ،

فهذا أمر مفروغ منه ﴿ فَوَرَّيْكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ ﴾ ، ولن يكونوا وحدهم

﴿ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ﴾ (٣) فهم والشياطين سواء ، والشياطين هم الذين

يوسوسون بالإنكار ، وبينها صلة التابع والمتبوع ، والقائد والمقود . . وهنا

يرسم صورة حسية وهم جاثون حول جهنم جثو الخزي والمهانة ، ﴿ ثُمَّ

لَنَحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴾ (٤) ، وهي صورة رهيبة ، وهذه الجموع التي

لا يحصيها العد محشورة محضرة إلى جهنم جاثية حولها ، تشهد هولها ،

ويلفحها حرها ، وتنتظر في كل لحظة أن تؤخذ فتلقى فيها ، وهم جاثون

على ركبهم في ذلة وفزع . . وهو مشهد ذليل للمتجبرين المتكبرين ، يليه

مشهد النزاع والجذب لمن كانوا أشد عتوا وتجبرا : ﴿ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ

أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَىٰ الرَّحْمَنِ عِتْبًا ﴾ (٥) وفي اللفظ تشديد ، ليرسم بظله وجرسه

(١) سورة النحل : ٢٩ .

(٢) سورة مريم : ٦٨ - ٧٢ .

(٣) سورة مريم : ٦٨ .

(٤) سورة مريم : ٦٨ .

(٥) سورة مريم : ٦٩ .

صورة لهذا الانتزاع ، تتبعها صورة القذف في النار ، وهي الحركة التي يكملها الخيال .

وإن الله ليعلم من هم أولى بأن يصلوها ، فلا يؤخذ أحد جزافا من هذه الجموع التي لا تحصى ، والتي أحصاها الله فردا فردا : ﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴾^(١) فهم المختارون ليكونوا طليعة المقدوفين^(٢) . وقد غيّرت هذه الآية ﴿ وَإِن مِّنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾^(٣) أحوال الصالحين ، فأسهت ليلهم ، وعكرت عليهم صفو العيش ، وحرمتهم الضحك ، والتمتع بالشهوات ، فقد ذكر ابن كثير أن أبا ميسرة كان إذا أوى إلى فراشه قال : ياليت أمني لم تلدني ، ثم يبكي ، فقيل له ما يبكيك يا أبا ميسرة ؟ فقال : أخبرنا الله أنا وراذوها ، ولم نخبر أنا صادرون عنها . وقال عبدالله بن المبارك عن الحسن البصري ، قال : قال رجل لأخيه : هل أتاك أنك وارد النار ؟ قال : نعم ، قال : فهل أتاك أنك صادر عنها ؟ قال : لا ، قال : فقيم الضحك ؟ قال : فما رثي ضاحكا حتى لحق بالله ، وقال ابن عباس لرجل يحاوره : أما أنا وأنت يا أبا راشد فسنردها ، فانظر هل نصدرك عنها أم لا ؟^(٤) .

(١) سورة مريم : ٧٠ .

(٢) في ظلال القرآن : (٢٣١٧/٤) .

(٣) سورة مريم : ٧١ .

(٤) تفسير ابن كثير : (٤٧٦/٤) .

المبحث الثالث

مرور المؤمنين على الصراط و خلاص المؤمنين من المنافقين

عندما يذهب بالكفرة الملحدين ، والمشركين الضالين إلى دار البوار : جهنم يصلونها ، وبشس القرار ، يبقى في عرصات القيامة أتباع الرسل الموحدون ، وفيهم أهل الذنوب والمعاصي ، وفيهم أهل النفاق ، وتلقى عليهم الظلمة قبل الجسر كما في الحديث الذي يرويه مسلم في صحيحه عن عائشة قالت : سئل الرسول ﷺ : أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات ؟ فقال : « هم في الظلمة دون الجسر » .

يقول شارح الطحاوية^(١) : « وفي هذا الموضع يفترق المنافقون عن المؤمنين ، ويتخلفون عنهم ، ويسبقهم المؤمنون ، ويحال بينهم بسور يمنعهم من الوصول إليهم ، روي البيهقي بسنده عن مسروق ، عن عبدالله ، قال : « يجمع الله الناس يوم القيامة » إلى أن قال : « فمنهم من يعطى نوره مثل الجبل بين يديه ، ومنهم من يعطى نوره فوق ذلك ، ومنهم من يعطى نوره مثل النخلة بيمينه ، ومنهم من يعطى دون ذلك بيمينه ، حتى يكون آخر من يعطى نوره في إبهام قدمه ، يضيء مرة ويطفاً أخرى ، إذا أضاء قدمه ، وإذا أطفأ قام ، قال : فيمر ويمرون على الصراط ، والصراط كحد السيف دحض مزلة ، ويقال لهم : امضوا على قدر نوركم ، فمنهم من يمر كأنقضاض الكوكب ، ومنهم من يمر

(١) شرح الطحاوية : ص ٤٧٠ .

كالرياح ، ومنهم من يمر كالطرف ، ومنهم من يمر كشدة الرجل ، يمرمل رملا على قدر أعمالهم ، حتى يمر الذي نوره على إبهام قدمه ، تحرُّ يدٌ ، وتعلق يدٌ ، وتخر رجل وتعلق رجل ، وتصيب جوانبه النار ، فيخلصون فإذا خلصوا ، قالوا : الحمد لله الذي نجانا منك ، بعد أن أراناك ، لقد أعطانا ما لم يعط أحدٌ (١) .

وقد حدثنا الحق تبارك وتعالى عن مشهد مرور المؤمنين على الصراط ، فقال : ﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَتُكَ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٦﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَسِمْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٧﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿١٨﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَىٰكُمْ النَّارُ هِيَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٩﴾ .

فالحق يخبر أن المؤمنين والمؤمنات الذين استناروا بهذا الدين العظيم في الدنيا ، وعاشوا في ضوئه ، يعطون في يوم القيامة نورا يكشف لهم الطريق الموصلة إلى جنات النعيم ، ويجنبهم العثرات والمزالق في طريق دحض مزلة ، وهناك يبشرون بجنات النعيم ، ويحرم المنافقون الذين كانوا يزعمون في الدنيا أنهم مع المؤمنين ، وأنهم منهم ، لكنهم في الحقيقة مفارقون لهم لا يهتدون

(١) قال الشيخ ناصر في تخريجه لأحاديث شرح الطحاوية (٤٧٠) : « صحيح ، وأخرجه الحاكم ، وأظن أن البيهقي من طريقه رواه ، وقال الحاكم : « صحيح على شرح الشيخين ، ووافقه الذهبي » وبين الشيخ أن أحد رواه فيه ضعف ، ثم هو مدلس ، لكنه تويع ، وصرح بالتحديث ، فالحديث صحيح .

(٢) سورة الحديد : ١٢ - ١٥ .

بهدهام ، ولا يسلكون سبيلهم من النور ، كما حرموا أنفسهم في الدنيا من نور القرآن العظيم ، فيطلب المنافقون من أهل الإيمان أن ينتظروهم ليستضيئوا بنورهم ، وهناك يخدعون ، كما كانوا يخدعون المؤمنين في الدنيا ، ويقال لهم ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا ، وبذلك يعود المنافقون إلى الورا ، ويتقدم المؤمنون إلى الأمام ، فإذا تميز الفريقان ، ضرب الله بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ، ويكون مصير المؤمنين والمؤمنات الجنة ، ومصير المنافقين والمنافقات النار .

وقد أخبر الحق أن دعاء المؤمنين عندما يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم هو (ربنا أتم لنا نورنا) ، قال تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَآغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١) .

قال مجاهد والضحاك والحسن البصري وغيرهم : هذا يقوله المؤمنون حين يرون يوم القيامة نور المنافقين قد طُفيء . (٢) .

(١) سورة التحريم : ٨ .

(٢) تفسير ابن كثير : ٦١/٧ .

المبحث الرابع

الذين همزواً على الصراط هم المؤمنون دون المشركين

دلت الأحاديث التي سقناها على أن الأمم الكافرة تتبع ما كانت تعبد من آله باطلة ، فتسير تلك الآلهة بالعابدين حتى تهوي بهم في النار ، ثم يبقى بعد ذلك المؤمنون وفيهم المنافقون ، وعصاة المؤمنين ، وهؤلاء هم الذين ينصب لهم الصراط .

ولم أر في كتب أهل العلم من تنبه إلى ما قررناه من أن الصراط إنما يكون للمؤمنين دون غيرهم من الكفرة المشركين والملحدين غير ابن رجب الحنبلي رحمه الله تعالى ، فإنه قال : في كتابه التخويف من النار : « واعلم أن الناس منقسمون إلى مؤمن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً ، ومشرك يعبد مع الله غيره ، فأما المشركون ، فإنهم لا يبرون على الصراط ، وإنما يقعون في النار قبل وضع الصراط »^(١) وقد ساق بعض الأحاديث التي سقناها ، ومنها حديث أبي سعيد الخدري الذي في الصحيحين ، ثم قال : « فهذا الحديث صريح في أن كل من أظهر عبادة شيء سوى الله كالسيح والعزير من أهل الكتاب فإنه يلحق بالمشركين في الوقوع في النار قبل نصب الصراط ، إلا أن عباد الأصنام والشمس والقمر وغير ذلك من المشركين تتبع كل فرقة منهم ما كانت تعبد في الدنيا ، فترد النار مع معبودها أولاً ، وقد دل القرآن على هذا المعنى في قوله تعالى في شأن فرعون :

(١) التخويف من النار : ص ١٨٧ .

﴿ يَاقُمْ قَوْمَهُ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأُورِدَهُمُ النَّارَ وَيُنَسُّ الْوَرْدَ الْمُرْوَدُ ﴾^(١) . . وأما من عبد المسيح والعزير من أهل الكتاب ، فأنهم يتخلفون مع أهل الملل المتتسبين إلى الأنبياء ، ثم يردون النار بعد ذلك .

وقد ورد في حديث آخر أن من كان يعبد المسيح يمثل له شيطان المسيح فيتبعونه ، وكذلك من كان يعبد العزير ، وفي حديث الصور أنه يمثل لهم ملك على صورة المسيح ، وملك على صورة العزير ، ولا يبقى بعد ذلك إلا من كان يعبد الله وحده في الظاهر سواء كان صادقا أو منافقا من هذه الأمة وغيرها ، ثم يتميز المنافقون عن المؤمنين بامتناعهم عن السجود ، وكذلك يمتازون عنهم بالنور الذي يقسم للمؤمنين^(٢) .

وهذا نظر سديد من قائله رحمه الله .

(١) سورة هود : ٩٨ .

(٢) التخويف من النار : ص ١٨٨ .

المبحث الخامس معنى ورود النار

ذهب بعض العلماء إلى أن المراد بورود النار المذكور في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴾ (١) هو دخول النار ، وهذا قول ابن عباس رضي الله عنه (٢) ، وكان يستدل على ذلك بقول الله تعالى في فرعون : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ﴾ (٣) ، وبقوله : ﴿ وَسَوْفَ الْعُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًا ﴾ (٤) ، وقوله : ﴿ لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلَهِةَ مَا وَرَدُواهَا ﴾ (٥) ، وروى مسلم الأعمور عن مجاهد ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ (٦) ، قال : داخلها (٧) .

وذهب بعض أهل العلم إلى أن المراد بالورود هنا المرور على الصراط ، يقول شارح الطحاوية : « واختلف المفسرون في المراد بالورود في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ (٨) ما هو؟ والأظهر والأقوى أنه المرور على الصراط قال تعالى : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ (٩) . وفي « الصحيح » أنه ﷺ ، قال : « والذي نفسي بيده ، لا يلج النار أحد بايع تحت الشجرة » ، قالت حفصة : فقلت : يا رسول الله ، أليس الله يقول : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ (١٠) . فقال : « ألم تسمعيه قال : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾

(٦) سورة مريم : ٧٢ .
(٧) التخويف من النار : ص ٢٠٠ .
(٨) سورة مريم : ٧١ .
(٩) سورة مريم : ٧٢ .
(١٠) سورة مريم : ٧١ .

(١) سورة مريم : ٧٢ .
(٢) التخويف من النار : ص ٢٠ .
(٣) سور هود : ٩٨ .
(٤) سورة مريم : ٨٦ .
(٥) سورة الأنبياء : ٩٩ .

وَتَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًا ﴿١﴾ . أشار ﷺ إلى أن ورود النار لا يستلزم دخولها ، وأن النجاة من الشر لا تستلزم حصوله ، بل تستلزم انعقاد سببه ، فمن طلبه عدوه ليهلكوه ولم يتمكنوا منه يقال : نجاه الله منهم .

ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا ﴿٢﴾ ، ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا ﴿٣﴾ . ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا ﴿٤﴾ ، ولم يكن العذاب أصابهم ، ولكن أصاب غيرهم ، ولولا ما خصهم الله به من أسباب النجاة ، لأصابهم ما أصاب أولئك ، وكذلك حال الوارد على النار ، يمرون فوقها على الصراط ، ثم ينجي الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثيا ، فقد بين ﷺ في حديث جابر المذكور أن الورود هو الورود على الصراط ﴿٥﴾ .

والحق أن الورود على النار ورودان : ورود الكفار أهل النار ، فهذا ورود دخول لاشك في ذلك كما قال تعالى في شأن فرعون ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٦﴾ ، أي بشس المدخل المدخول .

والورود الثاني : ورود الموحدين ، أي مرورهم على الصراط على النحو المذكور في الأحاديث .

(١) سورة مريم : ٧٢ .

(٢) سورة هود : ٥٨ .

(٣) سورة هود : ٦٦ .

(٤) سورة هود : ٩٥ .

(٥) شرح العقيدة الطحاوية : ص ٤٧١ .

(٦) سورة هود : ٩٨ .

المبحث السادس

حقيقة الصراط ومعنى أهل السنة فيه

قال السفاريني : « الصراط في اللغة الطريق الواضح . ومنه قول جرير :

أمير المؤمنين على صراط إذا اعوج الموارد مستقيم

وفي الشرع جسر ممدود على متن جهنم ، يرده الأولون والآخرين ، فهو قنطرة بين الجنة والنار» (١) .

وقد بين شارح الطحاوية معتقده في الصراط المذكور في الأحاديث فقال :

« ونؤمن بالصراط ، وهو جسر على جهنم ، إذا انتهى الناس بعد مفارقتهم الموقف إلى الظلمة التي دون الصراط ، كما قالت عائشة رضي الله عنها : إن رسول الله ﷺ سئل : أين الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات ؟ فقال : « هم في الظلمة دون الجسر» (٢) .

وقد بين السفاريني رحمه الله تعالى - موقف الفرق من الصراط ، وهل هو صراط مجازي أم حقيقي ؟ ثم قرر مذهب أهل الحق الذي دلت عليه النصوص فيه ، فقال : « اتفقت الكلمة على إثبات الصراط في الجملة ، لكن أهل الحق يثبتونه على ظاهره من كونه جسرا ممدودا على متن جهنم ، أحد من السيف وأدق من الشعر ، وأنكر هذا الظاهر القاضي عبد الجبار المعتزلي ، وكثير من أتباعه زعما

(١) لوامع الأنوار البهية : (١٨٩/٢) .

(٢) شرح الطحاوية : ص ٤٦٩ .

منهم أنه لا يمكن عبوره ، وإن أمكن ففيه تعذيب ، ولا عذاب على المؤمنين والصلحاء يوم القيامة ، وإنما المراد طريق الجنة المشار إليه بقوله تعالى : ﴿ سَيِّدِيهِمْ وَيُصَلِّحُ بِأَلْمَمِ ﴾ (١) ، وطريق النار المشار إليه بقوله تعالى : ﴿ فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾ (٢) ، ومنهم من حمله على الأدلة الواضحة والمباحات والأعمال الرديئة التي يسأل عنها ويؤاخذ بها، وكل هذا باطل وخرافات لوجوب حمل النصوص على حقائقها ، وليس العبور على الصراط بأعجب من المشي على الماء أو الطيران في الهواء ، أو الوقوف فيه ، وقد أجاب عليه السلام عن سؤال حشر الكافر على وجهه بأن القدرة صالحة لذلك ، وأنكر العلامة القرافي كون الصراط أدق من الشعر وأحد من السيف ، وسبَّقه إلى ذلك شيخه العز بن عبد السلام ، والحق أن الصراط وردت به الأخبار الصحيحة وهو محمول على ظاهره بغير تأويل كما ثبت في الصحيحين والمسانيد والسنن والصحاح مما لا يحصى إلا بكلفة من أنه جسر مضروب على متن جهنم يمر عليه جميع الخلائق ، وهم في جوازه متفاوتون » (٣) .

وذكر القرطبي مذهب القائلين بمجازية الصراط ، المؤلفين للنصوص المصراحة به ، فقال :

« ذهب بعض من تكلم على أحاديث وصف الصراط بأنه أدق من الشعر ، وأحد من السيف أن ذلك راجع إلى يسره وعسره على قدر الطاعات والمعاصي ، ولا يعلم حدود ذلك إلا الله تعالى لخفائها وعموضها ، وقد جرت العادة بتسمية الغامض الخفي دقيق ، فضرب المثل بدقة الشعر فهذا من هذا الباب ، ومعنى قوله : أحد من السيف أن الأمر الدقيق الذي يصعد من عند الله تعالى إلى

(١) سورة محمد : ٥ .

(٢) سورة الصافات : ٢٣ .

(٣) لوامع الأنوار البهية : ١٩٢/٢ .

الملائكة في إجازة الناس على الصراط يكون في نفاذ حد السيف ومضيه إسراعا منهم إلى طاعته وامثاله ، ولا يكون له مرد كما أن السيف إذا نفذ بحده وقوة ضاربه في شيء لم يكن له بعد ذلك مرد ، وإما أن يقال : إن الصراط نفسه أحد من السيف وأدق من الشعر فذلك مدفوع بما وصف من أن الملائكة يقومون بجنيبه ، وأن فيه كلاليب وحسكا ، أي أن من يمر عليه يقع على بطنه ، ومنهم من يزل ، ثم يقوم ، وفيه أن من الذين يمرون على مَنْ يعطي النور بقدر موضع قدميه ، وفي ذلك إشارة إلى أن للمارين عليه مواطيء الأقدام ، ومعلوم أن دقة الشعر لا يحتمل هذا كله^(١) .

ثم رد عليهم مقالتهم ، فقال : « ما ذكره هذا القائل مردود بما ذكرنا من الأخبار وأن الإيمان يجب بذلك ، وأن القادر على إمساك الطير في الهواء قادر على أن يمسك عليه المؤمن ، فيجريه أو يمشيه ، ولا يعدل عن الحقيقة إلى المجاز إلا عند الاستحالة ولا استحالة في ذلك للأثار المروية في ذلك ، وبيانها بنقل الأئمة العدول ، ومن لم يجعل الله له نورا فهاله من نور^(٢) » .

(١) التذكرة للقرطبي : ٣٣٢ .

(٢) التذكرة للقرطبي : ٣٣٣ .

العَبَثُ السَّابِعُ

عِظَةٌ لِمُرُورِ عَمَلِ الصَّرَاطِ

يقول القرطبي : « تفكر الآن فيما يجلب بك من الفزع بفؤادك إذا رأيت الصراط ودقته ، ثم وقع بصرك على سواد جهنم من تحته ، ثم قرع سمعك شهيق النار وتغيظها ، وقد كلفت أن تمشي على الصراط ، مع ضعف حالك واضطراب قلبك ، وتزلزل قدمك ، وثقل ظهرك بالأوزار ، المانعة لك من المشي على بساط الأرض ، فضلا عن حدة الصراط ، فكيف بك إذا وضعت عليه إحدى رجلك ، فأحسست بحدته ، واضطرتت إلى أن ترفع قدمك الثاني ، والخلائق بين يديك يزلون ، ويعثرون ، وتتناولهم زبانية النار بالخطاطيف والكلاليب ، وأنت تنظر إليهم كيف ينكسون إلى جهة النار رؤوسهم وتعلو أرجلهم فيا له من منظر ما أفضعه ، ومرتقى ما أصعبه ، ومجاز ما أضيقه » (١) .

وقال أيضاً : (٢) « فتوهم نفسك - يا أخي - إذا صرت على الصراط ، ونظرت إلى جهنم تحتك سوداء مظلمة ، قد لظى سعيها ، وعلا لهيبها ، وأنت تمشي أحيانا ، وتزحف أخرى ، قال :

أبت نفسي تتوب فما احتيالي إذا برز العباد لذي الجلاي
وقاموا من قبورهم سكارى بأوزار كأمثال الجبال
وقد نصب الصراط لكي يجوزوا فمنهم من يكب على الشمال

(١) التذكرة للقرطبي : ٣٣٢ .

(٢) التذكرة للقرطبي : ٣٣٠ .

تلقاه العرائس بالغوالي
غفرت لك الذنوب فلا تبالي

ومنهم من يسير لدار عدن
يقول له المهيمن يا وليي

وقال آخر :

تصول على العصاة وتستطيل
وقوم في الجنان لهم مقييل
وطال الويل واتصل العويل

إذا مد الصراط على جحيم
فقوم في الجحيم لهم ثبور
وبان الحق وانكشف المغطى

obeikandi.com

المراجع مرتبة على حروف المعجم

- ١ - التخريف من النار ، للحافظ أبي الفرج بن الجوزي . طبعة المكتبة العلمية . بيروت .
- ٢ - التذكرة في أحوال الموتق وأمور الآخرة للقرطبي . طبعة المكتبة السلفية - المدينة المنورة .
- ٣ - تفسير الألوسي . طبعة إدارة الطباعة المنيرية .
- ٤ - تفسير ابن كثير . طبعة دار الأندلس . بيروت . الطبعة الأولى . ١٣٨٥ - ١٩٦٦ .
- ٥ - تفسير القرطبي . طبعة دار الكتاب العربي . القاهرة .
- ٦ - جامع الأصول في أحاديث الرسول - لابن الأثير تحقيق عبدالقادر الأرنؤوط . نشر مكتبة الحلواني الطبعة الأولى ، ١٣٩٢ - ١٩٧٢ .
- ٧ - الروح لابن القيم . نشر المكتبة العلمية . بيروت .
- ٨ - سلسلة الأحاديث الصحيحة للشيخ ناصر الدين الألباني . نشر المكتب الإسلامي . بيروت . الطبعة الأولى .
- ٩ - شرح العقيدة الطحاوية . لمحمد بن محمد بن أبي العز الحنفي . نشر المكتب الإسلامي . بيروت . الطبعة الرابعة . ١٣٩١ .
- ١٠ - صحيح البخاري . اعتمدنا على متن فتح الباري : طبعة السلفية . القاهرة . الطبعة الأولى .
- ١١ - صحيح الجامع الصغير للسيوطي . تحقيق محمد ناصر الدين الألباني . نشر المكتب الإسلامي . بيروت . الطبعة الأولى . ١٣٨٨ - ١٩٦٩ .
- ١٢ - صحيح مسلم . تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي . طبعة دار إحياء الكتب العربية . بيروت . الطبعة الثانية . ١٩٧٢ .
- ١٣ - العهد القديم والعهد الجديد .
- ١٤ - فتح الباري ، لابن حجر العسقلاني . طبعة المكتبة السلفية . القاهرة . الطبعة الأولى .
- ١٥ - في ظلال القرآن ، لسيد قطب . طبعة دار الشروق .
- ١٦ - لسان العرب ، لابن منظور . ترتيب يوسف خياط ، ونديم مرعشلي ، طبعة دار لسان العرب .
- ١٧ - لوامع الأنوار البهية ، للسفاريني . طبعة دولة قطر . الطبعة الأولى .

- ١٨ - مجموع فتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية . جمع ابن قاسم . طبعة دولة المملكة العربية السعودية . الطبعة الأولى .
- ١٩ - مشكاة المصابيح للخطيب التبريزي . طبعة المكتب الإسلامي . دمشق . الطبعة الأولى . ١٣٨١ - ١٩٦١ .
- ٢٠ - معارج القبول . للشيخ حافظ حكيمي طبعة الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية . الرياض .
- ٢١ - مقاصد المكلفين ، مؤلف هذا الكتاب . طبعة مكتبة الفلاح . الكويت .
- ٢٢ - نهاية البداية والنهاية لابن كثير . نشر مكتبة النهضة الحديثة . الرياض . الطبعة الأولى . ١٩٦٨ .